الأعمال الكاملة

خيري شلبي

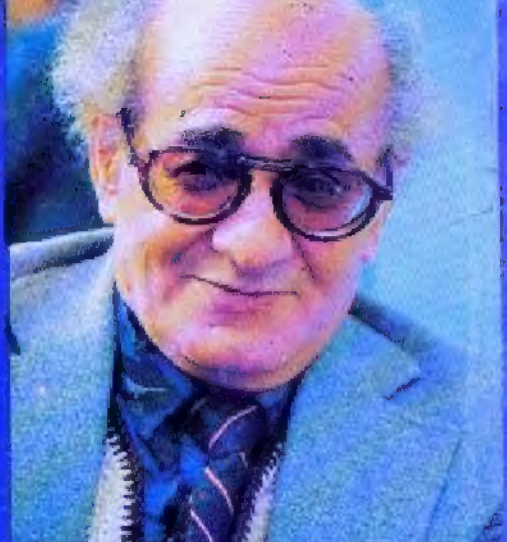

Amly

الأمالي

لأبي علي حسن : ولد خالي

سيرة ذاتية شعبية في ثلاث أجزاء

- أولنا ولد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأعمال الكاملة..

خيرى شلبى

(٤)

الأمالى

لأبى على حسن : ولد خالى
سيرة ذاتية شعبية فى ثلاث اجزاء

١ - أولنا ولد
٢ - وثانينا الكومى
٣ - وثالثنا الورق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

تصميم الغلاف:

الإخراج الفني: هاشم الأشموني

أولنا ولد

البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين. اما بعد فهذه أمالي الحاج «حسن ابو على» ولد خالي «عبد الباسط عواد»، الشهير بابى ضب. املاها علىّ في بضع ليال ونحن جلوس على مصطبة من الحشيات الثمينة المبطنة بالفرو، ومن خلفنا المساند القطيفة الملونة، في شرفة شقته المقامة في الدور السابع فوق سطح عمارته المهيبة الواقفة كالعروسة الحورية فوق اعلى قمة من جبل المقطم الاغر، حيث يتربع «حسن ابو على» ولد خالي في غاية من الاطمئنان بعد اذ لم يعد مطلوبا منه اى شيء على الاطلاق، وبعد أن تغلغل في كل شيء في البلاد، وبات حاكما بأمره يخطب الجميع ودّه ويتملقونه ويمسحون له الجوخ في كل مكان، وبعد ان زهد في كل شيء منذ أن توفرت له كافة السلطات، ولم يعد يطلب من الله غير الستر ومغادرة هذه الحياة الفانية في سر هادىء يمكنه من النظر في أمر الحياة الباقية، تلك التى لم يعطها من قبل نظرا على الاطلاق الا في اواخر ايامه.

القاهرة الكبرى تبدو امامنا كاطلال مدينة خرافية تهدمت ولم يبق منها سوى أورام كالحة فى النهار كئيبة فى الليل رغم بريق الأضواء المنبعث من خلال الهديم. وقد ضمن ولد خالى لأولاده كل شيء واطمأن إلى أن مستقبل البلاد كله سيظل فى ايديهم لقرون طويلة من الزمن قادمة.

وكنت مشغوفا بالفرجة على التليفزيون الملون المفتوح دائما فى صدر البهو الكبير يعرض اذرعا وسيقانا وخصورا ورقصا وغناء وتهريجا ونواحا. ولكن ولد خالى كان يسخر منى دائما وينهانى عن الفرجة.

قلت له: ياولد الخال لماذا لا تتركنى أتفرج على ما فيه من افلام وتصاوير؟

قال: ولماذا الأفلام والتصاوير ياولدى؟ أنا عندى لك من الأفلام والتصاوير ما هو احسن من هذه وانفع!

قلت له: يا ولد الخال ولكن الحكاوى التى ستحكيها لى ليس فيها تصاوير اللحم الأبيض المخروط فى قوالب زبدة وقشطة!

قال بعفوية دون أن يدرى: عندى من هذا اللحم اكثر مما يشتهى الخلق كلهم! ستشبع لحما وزبدا وقشطة!

ثم بان الغضب اللطيف على وجهه فجاة، وبرق فى عينيه ذلك البريق اللاهب. ولو لم اكن اعرف طبع ولد خالى لظننت

من هذه الغضبة الصامتة انه سيفتك بى لا محالة. نفس الخديعة التى يقع فيها كل من يرى هذه النظرة فى عينيه وهذه الشدة على وجهه لأول مرة.

فوجهه مثلث الشكل منحوت يشبه مبخرة فخارية، يشبه الجوافاية المتقيحة الناشفة. عيناه ثقبان عميقان يندفع منهما بريق حاد كعمودين من الضوء مفتوحين على الشمس. فى عينيه الف قتيل وقتيل دفنهم ومشى فى جنازاتهم باكيا بحرقة بدهاء ملفوف فى براءة تصل إلى حد البلاهة أحيانا. لا يستطيع مخلوق - مهما كان أريباً ذكيا ابن حرام - أن يفصل بين المجرم العتيد فى ولد خالى وبين بلاهة الصعيدى القحف. العشرة الطويلة وحدها هى التى تستطيع أن تريك الرجل الطيب فى ولد خالى. شيئا فشيئا سيقل رعبك من شخطته ذات الرنين الخشن القاسى، ويخف انزعاجك من التواء الشر فى ملامحه ولهيب النار فى عينيه. ستتجاوز عن تشويحة ذراعه فى وجهك بيد وأصابع سرحة وذراع تتبختر وسط فتحة كم عريضة. لن يغرنك طوله الشامخ حين ينتفض واقفا ليؤنب فى غضب جريح أو يصرخ فى رثاء الأدب والأخلاق والرجال وأهل زمان.. لسوف تعرف أن هذه الفزعة الجبارة هى آخر ما تبقى له من سلطاته القديمة التى نبذها غير آسف عليها، وآخر ذبالة من ضوء سيادته التى اطفاها بنفسه زهدا واحتقارا منه لشأنها.

اشد حالات هياجه وعراكه ينهيها اذان الصلاة، حيث يضطر هو إلى الاستجابة الفورية بالرد على صوت المؤذن صائحا: الله اعظم والعزة لله.. ثم يصلح عمامته الصعيدية الصغيرة كأنها البرام الأبيض، ويولى هامته العالية نحو المسجد رافعا حاجبيه عن نظرة ثاقبة تتلصص تتدبر هى نظرة ولد خالى «حسن عبد الباسط» الشهير بابى ضب، نظرة تريد أن تخترق النفوس لتعرف ما بداخلها على وجه الدقة واليقين. فإذا راى كوب ماء فى يد أحد ساعة الاذان انقضت يده عليه فرشف منه وتمضمض ثم واصل الاندفاع نحو المسجد. وعند خروجه من الصلاة يترك مسجد السلطان برقوق ويدخل المقهى الذى تعود أن يلتقى فيه بصحابه الحجاج عصر كل يوم ليدخنوا لهم ما يربو على خمسمائة حجر من الحشيش على قارعة الطريق، وربما وجد من كانوا يتعاركون معه قبل الصلاة جالسين، فإذا هو يجلس بينهم يبادلهم الحديث بود عميق كان شيئا لم يكن.

واما أنا فلست أستطيع بل لست املك ان ارفض لولد خالى طلبا. لقد كان هو الحافز الأكبر لابى وامى بان يربيانى على التعليم لعلنى أعيد إلى الوجود شهرة اخوالى الفقهاء. فالحقنى ابى بالكتاب فى بلدتنا «كوم سعيد»، فحفظت القرآن وجودته ثم التحقت بالمعهد الدينى فى أسيوط ثم جئت اخيرا لاتعلم فى الأزهر الشريف مثل رفاعه الطهطاوى ومحمد

عبده وطه حسين واخوالى. وهكذا قدر لى ان انتقل من «كوم سعيد» بالغنايم قبلى إلى الأزهر الشريف طالب علم، اسكن فى دار ولد خالى ولا غرو. وقد رحب بى ايما ترحيب، فافرد لى شقة خاصة أرتع فيها وحدى كاولاد الباشوات، وتكفل بمصاريفى وكسوتى حتى بات اهلى لا يعرفون عنى اى شىء وإن رأونى فقد لا يعرفوننى من فرط ما طرا على من نعيم مقيم. يكفى اننى اذهب إلى الأزهر كل يوم فى سيارته المرسيدس وسائقه يوصلنى بحقيبة الكتب حتى محل الدرس، ويعود ليحملنى إلى الدار، اقصد القصر المنيف.

ولقد بات ولد خالى يجد لذة عظمى فى توجيهى والاشراف على واستحثاثى على الجد والاجتهاد باخلاص عميق لا أظنه يتوفر فى ابى نفسه. ثم أننى درست ولد خالى عجنته وخبزته. عرفت عنه الكثير مما تقشعر منه الأبدان لكننى مع ذلك أحببته. وكلما ضقت به وباشرافه وثرثرته تذكرت أن الواقع دائما فى صفه. والغريب أننى كلما دققت فى الاستماع إليه وجدت حكما خطيرة وجنيت فوائد جمة لا تحصى. بصراحة وجدته على حق، اذ اطلت المكوث أمام الشاشة الملونة فاصابنى التكرار بالكآبة والرغبات السفلية، ونظرت فى كتب الدراسة فما وجدت إلا علوما تتقعر فى الفراغ بعيدا عن مجريات الحياة، علوم هذه الكتب كلها تسير فى واد وتسير حياتنا فى واد آخر، وليس ثمة من صلة بينهما على

الاطلاق فكل يمضى فى فلكه بعيدا عن الآخر، والناس فى بلادنا يتخرجون فى الجامعات والمعاهد والأكاديميات ليصبحوا فى النهاية مجرد موظفين ينفق عليهم امثال ولد خالى. وقد تبين لى خلال سنوات التحاقى بالتعليم العالى واحتكاكى بالقاهرة ام الاعاجيب امثال ولد خالى «حسن ابو على»، ان امثال ولد خالى هؤلاء هم دائما وجوه المجتمع الحقيقيين بل هم اصلابه اصحاب رأس ماله وعمائره السكنية ومحلاته التجارية الكبرى واعضاء مجلس شعبه وتاجرو مخدراته. امثال ولد خالى «حسن أبو على» هؤلاء هم الفائزون على الدوام، وليس يصيبنا من التعليم سوى النفقات والعناء الشديدين، ولا اظن ان احدا يمارى فى أن مجتمعنا لا يطلب منك شروطا على الأطلاق لكى تصبح أحد اثريائه فى شهور قليلة، أو احد ملوكه أو رؤسائه فى قفزة واحدة يصبح من حقك أن تتحدى كل شىء وتحصل على كل شىء وتشترى بنقودك بقوتك ما تشاء وتهوى.

لكل هذا فانا استمع - وأدون - كل حكاوى ولد خالى «حسن أبو على»، التى طقت فى مخه فجاة فطلع فى دماغه أن يمليها على كصفحات من بطولاته الخارقة. وقد املاها على فى استمتاع شديد، ودونتها فى استمتاع اشد. ولم اضبطه متلبسا بالكذب فى كلمة واحدة، حتى لقد أعطانى درسا فى

الصفاء والتجرد والجرأة على الاعتراف والمكاشفة بما يشيب له الولدان. لقد أدلى بشهادته كاملة غير منقوصة لما راى أن الجميع فى هذه الأيام يهتمون بكتابة شهاداتهم، كل من هب ودب يتطوع بالادلاء بشهادته.. فأراد ولد خالى أن يلقنهم درسا فى نوع الشهادات التى يجب أن تكتب اليوم، فإذا هو يكشف عن الجانب الدقيق المخفى من حياتنا المتعفنة فيعترف بكل مدهش ومثير، وإذا هى شهادة جديرة بأن يحملها ضمير الأمة كما قال.

وبعد فليس لى أى فضل سوى تسطير اماليه هذه على الورق، لعل من يهمهم معرفة جوهر الحقيقة - كما قال - أن يفتحوا أعينهم ذات يوم. فإذا كانوا قد ظلوا طول عمرهم يقرءون شهادات المثقفين، فلعله قد آن الأوان لأن يستمعوا إلى شهادات العامة من افواه المواطنين، أو كما قال «طبق الاصل».

الفاتحة

الله لا يعيدها من أيام. الفقر وحش ياولدي وأكل العيش مر، والبطن لا ترحم. وهي ليست بطنا واحدة، خذ عندك أمي، وأربع بنات كبار، وطفل ملامحه كنت أشاهدها الخالق الناطق على وجوه أعمامي الفقهاء المحترمين، وأتعجب: كيف يصير هؤلاء محترمين هكذا؟ وأبي على باب الله يعيش على ذراعه يشتغل يوما ويبطل عشرة، حتى ليمشي يعرض الخدمة على الناس يتطوع بالمساعدة دون أن يدعوه أحد، أحيانا دون لزوم. أنت وغيرك تتصور أن المسألة مجرد شهامة من رجل يبدو محترما غير أجير، فتكتفي برفع ذراعك في الهواء بالشكر والتحية مثلما تشكر أعيان الناس بينما تعطيه ظهرك متكلا على الله. واقعتك سوداء لو فعلتها ربما مشى خلفك في هدوء شديد ليجذبك من أي مكان في متناول يده الغليظة الخشنة، ذراعك أو خناقك أو رقبتك نفسها لا يهم: تعال هنا.. حمار أنا يعني أشتغل لله من غير أجر؟! حتى الحمار يعلفونه وينفقون عليه!..

الكل ياولدي كان يتقي شره، يتركونه يساعدهم راغبين. لم تكن المصادمات تحدث بينه وبين أحد إلا أيام السوق، حيث ينخدع

في شكله الغرباء، يرون في وجهه صلاح أعمامي وطيبة قلوبهم ورجولتهم، بعدها هو وبخته، حسب نوع الناس الذين يرمي بجثته عليهم، مع أنه أزرق الناب، عليه رحمة الله كان يعرف الناس من أقفيتهم، ومنها يتوسم فيهم الخير أو كلاحة الوجه. العبد منا ليس معصوما من الخطأ. ويرحمه الله كان يضوب في قلب السوق ينظر حواليه وعينه لائذة بكل شيء، يرى جماعة ينزلون أجولة الحبوب عن الركائب يعدون الفرش، يراهم في حاجة حقيقية لمساعدته لكنه يعطيهم ظهره وينصرف، ليساعد بائع العجوة في نصب خيمته واعداد موازينه وبعدها يقف يتلكأ فيفهم البائع هذه الإشارة يطبق يده على الواحد بأربعة أو القرش على سبيل الهدية أو الحسنة التي يسره أن يقبلها ذلك الرجل الطيب المحترم لعله يكون بركة. أما تجار الحبوب فانهم كانوا سيسخرونه في تفريغ وتكييل وتحميل طول نهار السوق وفي النهاية لن يأخذ سوى القرشين!..

أتممت في الشهر الفائت أربعة وخمسين حولا بالتمام والكمال ومازالت أيام كان يتركني أشبط في ذيله فأمضي معه يوم السوق كله. كان يعرق بحق، يصعب علي، من فرش إلى فرش يحمل يعتق يفرغ يجر العربات يتعارك في اليوم مائة عركة، في كل عركة يضرب وينضرب حتى يقع مغشيا عليه وولد خالك يصرخ لله ما يغيثه من كثرة الخوف على أبي الذي أراه يموت أمام عيني في اليوم الواحد عشرين ثلاثين مرة على الأقل! أتعجب في كل عركة كيف كان يستطيع النهوض بعدها متجها إلى فرش آخر يبحث فيه

عن مساعدة يقدمها لأصحابه، إن لم تكن موجودة أختلقها، لربما فوجئت به يكنس أمام دكانك ويرش، ما يجعلك تنتبه إلى أنك بالفعل كنت محتاجا لمن يكنس لك المكان ويرشه ليصير نظيفا هكذا، أو تراه قد تسلل إلى فرشك وراح يرتب أجولته وموازينه من الفوضى التي أحدثتها معاينات الزبائن وفركشاتهم للبضائع، مما يجعلك تنتبه إلى أنك بالفعل كنت محتاجا لمن يقوم لك بهذه المهمة. ولربما فوجئت به واقفا أمامك ماثلا رهن الاشارة في أن تكلفه بشيء أو تطلب منه طلبا أو تأمره بأمر، ومن هنا كانت تكثر خناقاته يا ولدي، وكان رأس ولد خالك الصغير أيامها لا يمكن أن يخطر له أن أبي هو الذي يسعى إلى العركة سعيا. كنت استعيذ بالله ويدب الرعب في كلما بدأ صوته يعلو في الكلام وترتعش شفتاه وتبرق عيناه، أروح أقول لنفسي ياسايل الستر استر يارب، رمشة عين والأخرى تكون الخناقة قامت والضربة دوت على وجه أبي، تتبعها الشلاليت والبونيات وأبي يفلفص بين جمع من الناس يلتم عليه فجأة ليخلصه ولكن بمزيد من الضرب، بعدها يقف بعيدا ويأخذ في الصياح والاحتجاج على ضربه وهو ابن الناس الطيبين واخوة له فقهاء مشهورون، فيتحرج الذين ضربوه، يبعثون له من يصالحه، يراضيه بقرش يزيد عما كان سيأخذه بدون عراك!..

ولد خالك لم يعد يخاف. فهمت أن أبي يفعل ذلك من أجل زيادة الرزق قرشا أو قرشين. في يوم السوق لابد أن تطبخ كافة الدور، الدار التي لا يتصاعد منها الدخان ليلة السوق هي دار اليتامى، ولابد أن يوقد الكانون في دارنا ويرسل دخانه ولهذا كان

أبى - بعد كل هذه البهدلة والضرب المميت - يبدأ فى الابتسام منذ انصرافه من أمام «سيبة» الجزار، حيث يكون قد تأكد من أن اللحم صار أخيرا فى يديه تنام اللفة الورقية الحمراء التخينة المبقعة بالدم على صدره وهو يركض مترنحا ذات اليمين وذات اليسار كالسكران النشوان يلقى السلام على الناس بكل ود، فيردون عليه بكل احترام للورقة النائمة على صدره يقولون: تفضل يا أبو عواد، فيقول: عشت عشت، وتزداد الابتسامة نورا على وجهه كلما اقترب من حارتنا. فإذا يبدأ فى دخول حارتنا يأخذ شكل الرجل المحترم يبدو بالفعل نسخة من وقار أعمامى الفقهاء فى مشيتهم لا فرق سوى الجبة والقفطان والعمامة والعصا. ولم أكن أعرف لماذا يفعل هذا فى هذه الحارة بالذات مع أننى أعرف أن أناسا كثيرين من أهل حارتنا هذه شاهدوه فى السوق وهو ينضرب بالصرمة القديمة، هم أيضا كانوا يردون عليه السلام بكل احترام قائلين: تفضل يا أبو عواد، فيقول: عشت، ويدلف إلى دارنا، من خلفه أنا، متفاخرا، محشو الجيوب بالعجوة والبرتقال واليوسفندى والفول السودانى. ينشرح وجه أمى وأخوتى من منظر الورقة. أمى تسمى بالله قبل أن تفتحها، تقلب فيها قائلة لأبى وهى تشوح بيدها فى وجهه بحب: إن شاء الله ما اشتهيك. تذهب إلى الكانون المشتعل تكاد تزغرد من الفرح. أنسى فى الحال كل ما أصابنى من بكاء وصراخ ونكد، أوزع على أخواتى وأمى وأبى كل واحد بلحة عجوة وفص برتقال. يكون

ريقنا قد بدأ يجرى والفرح يعمنا كلما طلعت رائحة اللحم المسلوق من تحت غطاء الحلة مع الدخان.

خالك، يرحمه الله، اشتغل فى أشغال كثيرة. الشغلة الوحيدة التى كنا نحبها ونتمنى لو دامت هى شغلة الخفارة، حيث خفرنا ما كينة مياه كبيرة كانت لرجل من الأعيان طيب القلب مثل حالاتك وحالاتى، كان له ثلاثمائة فدان تسهر عليها ماكينة المياه ونحن وأبى نسهر عليها وعلى الأرض طول الليل. أقمنا دارا لنا بجوار الماكينة وأقمنا فيها، فبقيت دارنا تقطع المسافة بين البلدة والجبل، إلى الجبل كانت أقرب، وكل العصابات التى تختبىء فى مغارات داخل الجبل كانوا أصحاب والدى وكانوا يستريحون عندنا أثناء تسللهم من الجبل ليلا إلى البلد أو تسللهم من البلد إلى الجبل. «على السايح» نفسه، الذى هرب من السجن والقيد الحديدى فى يديه، كان يستريح عندنا، ولقد سحرنى هذا الرجل مثلما سحرنى الجبل، هو الوحيد الذى بهرنى بعد الجبل وأوقف شعر رأسى من الرعب والحب لهؤلاء الذين يدوخون البر كله يحتضنهم هذا الجبل المهيب المخيف المليء بالمغارات..

أتعرفون كيف هرب «على السايح»؟ تراك أنت وجيلك لم تسمع به. وهل رأيتم أنتم شيئا؟ إنكم جيل الفقر والحروب وعسكر الاحتلال واحتلال العسكر، فمن أين تجيئكم المرجلة عدم المؤاخذة؟ من السمن الهولندى والقمح الأمريكى المدفوع فيه شرفكم؟ أم من الفراخ الفاسدة ولحوم الكلاب المفرومة التى يوردها عبد الحى وعبد الميت؟! أم من الماء العكر المختلط بماء المجارى والهواء المختلط

بعادم المكن والمواقد؟! عليه العوض ومنه العوض فيكم ياولدى! فى هده البلاد شىء كبير غلط لا أحد يدرى ما هو لكننى أقول إنه ندرة الرجال!

«على السايح» كان محكوما عليه فى أربع تأبيدات كلها اعتداء على الحكومة وقتل أعيان من رجالها، مع أن الحكومة هى التى كانت تبدأ دائما بالعدوان، هل هناك من يتعدى على الحكومة من الباب للطاق؟ الناس تعتدى على الناس، وهيهات أن تجىء الحكومة فى الوقت المناسب، الميت يبقى فى مكانه ثلاثة أيام ربما عشرة فى انتظار تشريف وكيل النيابة إلى أن تتعفن جثته ولايستطيع مخلوق فى أن يقترب منها وحتى لو جاءت النيابة فماذا ستفعل؟ محاضر وأقوال؟ طبيب شرعى يبيع التقارير بتسعيرة كبيرة ؟! وحقوق تضيعها المحاكم بين قضاة يعوجون الطربوش على ناحية ويحكمون بأربع وعشر ومؤبد وهم لا يعرفون أصل الحكاية من فصلها ولا ظالم من مظلوم ؟! ومحامون متكلمون يختلقون الأوراق ويولدون الكلام كلاما ومخارج وأوهاما تصفى دم الغلابة ؟! ..

ياولدى الناس طول عمرها تعرف أن الحكومة لا ترد لأحد حقوقه ولا تقتص من أحد لصالح أحد! أنها لا تدخل إلا لفض المعارك والفتك بالجميع ولهذا تعودنا فى الصعيد أن نجنب الحكومة، فما تبدأ معركة إلا وتكون أول خطوة فيها هى قطع أسلاك التليفون حتى لا تأخذ الحكومة علما، لكى تتسع الفرصة

لا، يأخذ الناس حقوقهم بأيديهم يابوى، يقتصون لأنفسهم بأنفسهم يابوى، أمال يابوى! أتظنون أنفسكم رجالا ؟! ..

«على السايح» يرحمه الله كان يشارك عراكا بريئا مع نفر من عائلته «وزادت المعركة اشتعالا بعض الشىء، تطوع أبناء الحلال فسافروا إلى بلدة مجاورة لبلدتنا وأبلغوا الحكومة من تليفون عمدتها، فهبطت علينا العسكر والهجانة من كل مكان واشتعل الضرب فينا عمال على بطال. دخلوا دورنا يابوى كما كان يفعل الفرنساوية والمغول الذين يحكون عنهم فى الراديو والانجليز... ساعات صاروا يمزقون الثياب عن النساء بحجة أنهن ربما يكن رجالا من الهاربين متنكرين، ويفتحون خواص المعيشة فيدلقون السمن والعسل واللبن على الأرض يدهسونه بالأحذية الميرى، والقدم ... وحوافر الجمال وعجلات البوكس فورد يدهسون بطون الحوامل والأطفال والعجائز فمن يرى هذا يابوى ولا يغلى دمه؟!

كنت طفلا صغيرا أيامها وكان ذلك حوالى سنة ألف وتسعمائة وخمسين أو قبلها بسنوات قليلة، ولازلت حتى هذه اللحظة أسمع الصراخ والصويت الساكن فى أذنى من يومها ... هاتين - قادر أن يخرسني لو كذبت - شاهدت اندفاع ... الحكومة بالمدافع الرشاشة يحصدون كل من فى طريقهم، ... عياني، الدار المجاورة لدار «على السايح» ليس لها دعوى بالشىء، لكن العسكر أخذوا يصوبون نحوها مدافعهم

ويضربون. خرج لهم من شباكيها فتى وفتاة من عائلة «الجباينة»، الفتى اسمه «جنة»، وعمره حوالي سبعة عشر ربيعا، والفتاة اسمها «جبينة»، وعمرها حوالي خمسة وعشرين عاما. أخذ كل منهما يدافع عن داره وأهله مطلقا رصاص المدفع الرشاش على العسكر والجانة فقتلوا منهم جملة، وكلما وقع منهم واحد زغردت الأم في الداخل، إلى أن اندفعت رصاصة من مدفع أحد الهجانة في رأس الفتى «جنة»، كانت عنيفة حتى نترته من الشباك وألقت به خارج الدار في الأرض، فما كان من أخته «جبينة» إلا نزلت من الشباك ولفت من الحوش لتفتح باب الشارع كي تجيء بجثة أخيها. وكان العسكري الهجان الذي ضرب أخاها قد نزل عن جمله وجاء نحو الفتى ليأخذ منه مدفعه الذي كان لا يزال يحتضنه، فعاجلته الفتاة «جبينة» مفرغة فيه كل حشو خزينة مدفعها، وجرجرته حتى عتبة الدار، وبحد الفأس قطعت رأسه وذراعيه وقدميه وصارت تفتت لحمه كأنه الردم!!..

كل هذا و«علي السايح» طائح في الهجانة والعسكر بفرسه ومدفعه الرشاش وسيفه وخنجره ونبوته حتى قتل منهم جملة وأصاب معظمهم إصابات خطيرة، وحين فوجئنا بمجيء الجيش المصري بعرباته المصفحة ومدافعه وخيوله ليخمد المعركة وجدها قد أخمدت تماما ولم يبق منها سوى «علي السايح» وحده، الذي صعب عليه أن يهرب والجبل على بعد رمحتين بالفرس الأشهب وجثث أهله وجيرانه وأصهاره مرمية على الأرض في كل ناحية

... بعثه الحكومة وجدته مخرج مكبلا بالحديد في يديه وقدميه ... تشيعه الزغاريد التي طغت على أصوات الثكالى وحمير الأهالي.

وحولوه إلى النيابة ثم محكمة جنايات أسيوط فحكمت عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة الرابعة، فقط لأن محاميه «عبد الفتاح باشا الطويل» أثبت أنه عند نشوب المعركة كان هو مقبلاً من عند أخواله في نجع حمادي المجاور لبلدة «أولاد إلياس» وأنه وصل بعد انتهاء المعركة وأنه لم يشارك فيها ولو شارك لكان أمامه متسع ليهرب كما أنه ليس لدى الحكومة شهود لا من رجالها ولا من أهل البلدة لأن الجميع كانوا قد ماتوا في المعركة وعددهم جميعا حوالي مائة وستين فردا من الطرفين حكومة وأهالي!.

عند انتقال «علي السايح» من المحكمة إلى السجن تكفل بنقله أربعة عساكر أشداء وضعوه في «البوكس فورد» مقيدا بالحديد من يديه وقدميه. ولما «البوكس فورد» يمتطي الطريق الزراعي أشار «علي السايح» نحو نجع أخواله وهمس في آذانهم بجدية وصدق كبيرين - (الله يرحمه كان مهيبا) - قائلا إنه يدفن في هذه الناحية ألف جنيه في الأرض، وهو الآن ذاهب إلى السجن المؤبد وخسارة طبعا أن تأكل الأرض هذا المبلغ، حرام، ليكن لهم ألف وله ألف يصرفه في سجنه إذا هم مروا به على هذا المكان حيث يشير لهم من قعدته هذه على موضع النقود فيفتحون بأنفسهم ويستخرجونها. صدق عسكر الشرطة الدنيا وأن تظاهروا بلعفة

الشـــديدة بل هم كـــذلك لأنهم كـــذلك وهكذا بـدا عليـــهم أنهم استحسنوا الفكرة ووافقوا عليهـا، فألف جنيه على أربعتهم ليست مبلغـا بسيطا بالنسـبة للقحط الذى يعـيش فيه خـدم الميرى ومن يتـمرغـون فى ترابه أعلنوا مـوافـقتـهم بجـسـارة خاصـة أنهم مسلحـون وهو أعزل مقيـد مفصولا عن أمه بعيـد عن بلده وأعوانه. وبعـد أن انحرف «البـوكس فورد» عن الطريق والتـحم بالمنعطف الواصل إلى الخيمة همس لهم «عـلى السايح» بأن منظر «البوكس فورد» سـوف يلفت النظر ويثير الشـبهة فـيلتم الناس ويعطلونهم عن كشف الدفينة وربما ادعى البعض أنه صاحبها! واقترح عليهم أن يركنوا «البـوكس فـورد» فى ذروة آمـنة فى سـفح الطريق ثم يركبـوا سيـارة أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفـينة ثم تعود بهم إلى مركز أجرة على حـسابه توصلهم إلى مكان الدفينة ثم تعود بهم إلى مركز «البوكس فورد» بعد انتهاء مهمتهم.

ركب هو بجـوار السائق ليرشـده على الطريق. سـائق الأجرة عرفه فى الحال وسلم عليه لكنه قفل مـلامح وجهه إثر غمزة قوية من أصابع «عـلى السايح» المقصـود. ظلت السيـارة الأجرة ترمح بين الحقول فى طرق ضيقة حتى توقفت أمام دار تغطس ـ وحيدة ـ وسط قطيع من النخيل والجزورين والكافـور وتحدها من جميع الجهـات مساحـات شاسـعة من الأراضى الزراعيـة التى هى ملك أخوال «على السـايح» وهذه دارهم. خرج منهـا ثلاث رجال يهتز من وقع خطوهم المهيـب جبيـن الأرض لتقول هزاته لـهؤلاء الذين نزلوا من السـيارة الأجرة أن اخضـعوا فأنتم أمـام أسيـاد هذه

الأرض. لكل منهم شارب يؤكد لك أن العيب كل العيب يكون عليه لو لم يصدق صـاحبه فى كلامـه، وعمما من الشـوم تؤكد لك أن الويل ملاقيك لا مـحالة إن أبديت لجاجة أو غبـاوة، ووجه بشوش يبسم عن سعة يؤكد لك أنك بالكرم العـزيز موعود، وأنك، بحسن التصرف واللباقة ـ من ها هنا ـ مولودا..

وهكذا فوجئ العسكر الأربعة أنهم قد أحيطوا بالكرم والاحترام على أكمل وجه. غـداء سريع شـهي أعقبه شاى ثقـيل. وقبل الغداء بقليل استـأذن «على السـايح» من أخـواله فى فأس فجىء له به فاصطحب اثنين من العسـكر ومضى بهما خلف الدار مـسافـة طويلة حـيث توقف عند بقـعة مـعينة طلب الـحفر فـيهـا فحـفر العسكريان حتى عثرا على الدفينة بالفعل مـلفوفة فى قـماط من جلد حـذاء قديم. فلمـا عاد ورأى العـسكريان الآخران البـشاشـة والرضا فى عينى زمـيليهما شملهم الاطمـئنان وجلسوا للغداء فى كثير من التـردد والترقب. لكن كـوبة الشاى الثقيلة تكفلـت بعدل أدمغتهم على الصهللة الرائقة والانشراح المجلجل بروقان الأفيون المزروع حقـهم مـباشرة على مـساحـات لا يحدها البـصر، لهـذا سمحوا لعلى السايح ـ عن أريحية وطيب خاطر ـ أن يدخل ليسلم على زوجة خاله خلف باب الدار مباشرة.

زوجة خاله كانت فى انتظاره داخل حوش الدار الواسع البعيد والفأس الصغيرة كسرت أقفـال قيوده، سمتـه الحصان والمدفع الرشاش وصـحت فيه انطلق. فاندفع من البـاب الخلفي لا ينظر

خلفه قاصداً الجبل، ولو رفع العسكر رؤوسهم وتلفتوا حولهم لرأوا فارساً متكوراً فوق حصان يشق الريح مندفعاً نحو ركن بعيد من السماء، لكن العسكر لم يرفعوا رؤوسهم لأن مخدر الأفيون القوي الذي شربوه مذاباً في الشاي بكمية كبيرة كسر رقابهم فارتمت رؤوسهم على صدورهم كرؤوس العصافير الذبيحة فلم يشعروا بأنفسهم إلا وسائق الأجرة يجر جثثهم واحداً وراء الآخر عند «البوكس» فورده ويتركهم واقفين متهدلين يتطوحون، لينطلق هو إلى سبيله مثيراً سحب الغبار خلفه.

إن حلفت لك بالله العظيم أنني جلست مع «علي السايح» هذا تقول عني كذاباً الوكيل ربنا، لقد ربت بيديه على رأسي وكتفي فيما هو يستريح في دارنا مع رجاله. كانت أمي تخبز عيشاً ليكفينا جمعة بحالها فأكل رجاله الخبزة كلها وتضطر أمي للخبيز ثانية من صبيحة ربنا وهي في غاية الانبساط لأن الذي أكل خبزتها هو «علي السايح» ورجاله. غير أن سعادة أمي كانت تجيء من ناحية أخرى، إذا كانت تعرف أن «علي السايح» يتلكأ في الطريق حتى يعمق ستر الليل ليذهب إلى داره كي يجامع زوجته ويستحم ويغير ثيابه ليعود إلى الجبل، وكانت تعرف أن رجاله البالغ عددهم عشرين والذين يأكل بعضهم خبزتها الآن سوف يحوطونه طول الطريق أن هناك مثلهم أكثر منهم عدداً يتراشقون بالأرض في طول الطريق من الجبل إلى الدار يؤمنون له الطريق يصنعون من أنفسهم ستاراً فوق ستار الليل ولا

يبدءون في مغادرة مواقعهم إلا بعد أن يروه ماراً عليهم في طريق العودة!

العمدة كان ابن عم «علي السايح» وكان ينوب عنه في رعاية مصالحه في غيبته. في يوم من الأيام ذهب أولاد «علي السايح» إلى عمهم العمدة يطلبون قمحاً لغدائهم، فقال لهم في جفاء:

- هل خلفتكم ونسيتكم؟ روحوا لأبيكم!

ذهب الأولاد إلى أبيهم في الجبل فقالوا له نص الكلام، فحمل «علي» رشاشه ونزل من الجبل إلى دار ابن عمه فرآه واقفاً فأسرع العمدة بإغلاق الباب ولكن الضرب استمر فإذا بقفل الباب ينخلع من مكانه ويدخل في صدر العمدة، مع ذلك تمكن العمدة من شد التليفون للمديرية، فلحق به العسكر وهو خارج من البلدة في طريق الجبل بين رهط من أعوانه، هجموا عليه فراح يبادلهم إطلاق الرصاص حتى كومهم جميعاً ماعدا اثنين حاصراه من الخلف وصوبا عليه حتى جعلا جسده كالغربال!

بموته تسوح أبي، خاف من الخفارة، أصيب بالتعبية والرطوبة، جاءه والعياذ بالله «فكر» في رأسه جعف عوده وكسر شوكته، فاشتغل مع عمال الكهرباء في معسكر ستة وعشرين الإنجليزي، لم يمض حول واحد حتى وقع عليه المقص الكبير الذي يركبون من فوقه المواسير، فمات في الحال. مات يابوي وتركنا ياحسرة لا وراءنا ولا قدامنا

الله واحد
أمى هى المبتدأ والخبر

شهور طويلة ونحن جوعى أى والله يابوى إن قلت لك ثلاثة شهور تقول كذابا. الحق أنها كانت سنة، عددتها ليلة ويوم إلا عشرين، الذى نبتت فيه مصيبة فيه كل فتلة خيط كل قطعة خشب كل شىء فى حوزتنا يصلح للبيع بعده بقدوة معشوة محرم البطون بعدها أياما وليالى.

تقول أعمامى الفقهاء؟ لقد فعلوا الواجب طبعا كثر خيرهم، أكلنا على حسابهم أياما لكنهم هم أنفسهم كانوا محتاجين لمساعدة كلب على باب الله العدد وسيده معا، لم يكن بقى منهم سوى عم واحد ضرير، بعد أن كانت صينية الشاى والقهوة تمر على ضيوفه أكثر من مرة أصبح لا يقدم لهم حتى جرعة ماء، بل كان يتركهم يجلسون كيفما اتفق، بل كان ينتظر منهم غمزة يد دافئة الحسنة عند انصرافهم وكان يوحى لهم بحركات يديه أن يفعلوها فإذا فعلوها بحسن نية غضب واهتاج هياجا عاصفا منهيا بأن يعطيهم درسا فى احترام العلم ومن يحملونه؛ فالعلم

رسالة سماوية وليس هو إلا مكلفا بها والاجر على الله يقبضه منه سبحانه عاجلا او آجلا وكلما تأجل الأجر عند الله زادت قيمته! نفس الكلام الذى كان يقوله لعامة أيام كان الخير يجرى فى يديه!

المقصود، تكومنا فى الدار لا يعرف طوانا إلا ذو الخيمة الزرقاء التى تظلل كل عباده. امرأة حالك ياولدى قلبها سخن دائما، ودماغها ناشف لا يستطيع الزمن كسره ولو كان حديدا. تذهب تساعد بعض الجارات فى بعض الاشغال، فى الخبز لقاء لقمة أرغفة، فى الطحين لقاء حفنة من الدقيق، فى الذبح والطبخ لقاء طبق من الطعام، كله ينفع، ولكن لوقته فحسب، فما العمل يابوى؟ البنات عندنا لا تشتغل، تموت جوعا ولا تعرضهن للبهدلة ساعة واحدة عند الناس. أخى الوحيد طفل رضيع ياكبدى الدور والباقى كله على أنا، هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا أتكور على نفسي منحشرا فى القاعة بين اخوتى.

اثنا عشر عاما كان عمرى وقتها، طويلا كنت كما ترى والبس فوق رأسى لبدة مفصوعة للوراء وأبدو رجلا لا ينقصنى من صفات الرجال شئ لكى اشتغل مثلهم وأشقى مثلهم، ولكن فيم أشقى وأتعب؟ لقد كان أبى رحمه الله يملك القوة ويلف يبحث عمن يستأجرها لقاء سيجارة. ها أنذا - أيضا - أملك الشباب ولا أعرف كيف أملأ بطنى وحدها فمن ياترى يملأ هذه البطون التى صفرت فينا وسحبت البصر والضوء من عيوننا؟!

امرأة خالك تدفعنى فى كتفى قائلة فى غيظ امزاح، وليس من مثال مزاح ابيه، لكنى أعرف سر غضبها فأقوى خصرى، ثم أهب واقفا فاراها تشوح فى وجهى قائلة: الا تتحرك ياولد؟ الا تفعل ما يفعله الرجال؟ ستقعد حشرتك الآن بيننا؟ يا أخى اسرح على الله فكل الرجال يسرحون كل يوم ويعودون بخير كثير! اسمع ياولد! أرض النصارى قريبة من هنا وفيها زرع كثير! اذهب إليها وهات منها شيئا نأكله! إنها مزروعة قمح! خذ القفة واملأها من أجرانها بالسنبلات وتعال! واحذر أن يراك أحد وأنت تفعل هذا! لا يهم أن يراك وأنت مقبل بها المهم الا يراك وأنت تسرق! فاتكل على الله ياجدع! اتكل على الله!».

هل أعشك؟ اتكلت على الله، حملت القفة وخرجت، قصدت بلدة «أبو حجر» القريبة من بلدتنا قرب الأنف من الفم، كل أهلها من النصارى زرعهم واسع، لا تحده حدود، يستأجر الأنفار للزراعة ولديهم ماكينات المياه تروى الخضراء معدودون لا يستطيعون حصر هذه المساحات الشاسعة فى عين حتى ولو كانت نظارة معظمة. اخترت منطقة مقطوعة منزوية عن الطريق، أخذت أحصد السنبلات وأعبئ القفة حتى ملأتها لتمها، خرجت عائدا إلى دارنا، افرغت القفة فصنعت كومة كبيرة شكلها مفرح. قالت أمى مشيرة إلى القفة املأها مرة أخرى. قلت حاضر ياأم، وانطلقت مسابقا الهمة ومن منطقة أخرى ملأتها وعدت، فلما أفرغتها استدرت من فرح عائدا لأملأ القفة مرة ثالثة. بعد المرة الرابعة صار لدينا حصيدا يصلح حصيدا لجرن عائلة، مع ذلك قالت أمى اذهب مرة

خامسة. وكنت قد تعبت، فقلت لها كفى ياأم. فجعلت تتحايل على وتقبلني وتستحلفني برحمة أبي وأنا أقول من الضيق كفى ياأم. لكن الذى طلع عليها هو مرة خامسة فقلت. أمرى لله، وحملت القفة وخرجت الدار المجاورة لنا مباشرة لدى أهلها كلبة شرسة مخيفة ولذا يغلقون عليها باب الدار بإستمرار ولا أحد يستطيع دخول الدار إلا إن امسك أحد أهله بالكلبة من جنزيرها وضعتنى الخطوة الثانية أمام بيت الجيران الذى كان مفتوح الباب فى هذه اللحظة ما أدرى إلا والكلبة قد هجمت عى بالفعل وأطبقت أسنانها على يدى اليسرى وأخذت تجرجرنى وأنا أصرخ حتى خلصونى منها بالعافية وخرجت أمي تلطم وجهها قائلة أنا السبب! أنا السبب! آه من قراقة العين! ولم تقل أمي أن السبب هو الحرام الذى شجعتني اليوم على ارتكابه!..

رقدت بهذه العضة شهرين كاملين ياوى لا حقنة ولا برشامة ولا أى شيء سوى البصلة فوقها حتى طبت ولكن آثارها لاتزال فى يدى مخلفة عاهة مستديمة

طاب الجرح لكن جرحا فى داخل النفس لم يطب، خرجت إلى الحقول من جديد أطلب الرزق فى غلس الظلام وألقى به فى حجر أمى أقول لها كلى ياأم انت واخوتى فانهم عندى رصاصك ياأم لكن أمى بدأت تخاف علىّ، وأنا أيضا بدأت أخاف على نفسى صحيح أن ربك يكرمنى ويعيدنى إلى أمى واخوتى سالما ولكن ما كل مرة تسلم الجرة على رأى عمى الفقيه الضرير..

فى يوم كنت أرتب لسرقة محرن علال فى داير الناحية بجواره مندرة حولها صاحبها لقعدة تبيع الشاى والسكر والدخان والحلاوه الطحينية والخيط والابر، يجلس فيها الرجال يشتركون فى بردة شاى ثقيلة، الواحد بقرش تعريفة، لكن لا يجلس فى هذه القعدة يابوى الا من لديه قرش تعريفة، والقرش لا يوجد إلا فى جيب سبع ممن عندهم أراض أو من قطاع الطرق

عيل مثل حالاتى لو جلس معهم يخدمهم طول القعدة اذا ذهبت شخصه شئ من الدور الثالث تبقى بركة ... لم يكن شخصة الشاى هذه ولا قعدة الرجال، انما كنت اتسقط أخبار المخزن من صاحبه الذى يجلس فى هذه القعدة على الدوام، كنت أريد أن اعرف أن كان يقفى سيجىء على شونة تبن أم بضاعة ثمينة يمكن ... أو أكلها، ولقد عرفت أن فى المخزن ... يابوى وأنى ساكل الحلوى والشهد لو وفقنى الله والمسألة بسيطة فهذه القعدة جزء من مندرة مقطوع منها، وبينه المندرة فى المخزن وبينه وبين القعدة باب خشبى لو دفرت فيه كتفى دفرة واحدة ... حينئذ أدخل فأحمل تليسا من القمح أو البرسيم، التليس ... تعرف ركيبة مصنوعة من صوف ... تسمى كلاب وكل الناس عندها تلاليس، وليس يعرف أحد تليسه من تليس الآخر ساحمله وأخرج من باب ... بعد فتحه من الداخل حيث إننى لو نزعت الشناكل الداخلية لا تسعت ... القفل وبيته فى ... فيصبح الباب ... إذن هى أن أبقى جالسا هكذا حتى ... لسهرة و ...

قبل الاعلاق لانام بين الاحولة في ظل التلاليس داخل المخزن، فيحلقون الباب علي وينصرفون، وقبل أذان الفجر بقليل افعل فعلتي، ومن يدري؟ ربما تمكنت من العودة إلى المخزن مرتين أوثلاثا قبل أن ينتبه أحد لأي شئ!

تذكرت يابوى أن الرجل صاحب المخزن مسيحي، وكل مسيحي في بلاد الصعيد لابد له من «بدوي» يحميه، حتى لو كان المسيحي رجلا أبهة من ذوي الأملاك الواسعة و «البدوي» جربوع شحاد حافي القدمين، طلعت علي الدنيا وأنا أرى هذا النظام في كل بلد من بلادنا، وكنت أحلم أن أكون ذات يوم «بدويا» لواحد من المسيحيين الأغنياء، فهو العمل الوحيد الذي ليس عليك أن تتعلمه يكفي أن تكون ولدا بلطجيا قتال قتلى ولك سمعة واسعة في السفالة وقلة الادب أو في الشهامة والجدعنه والرجولة، ففي الحالتين ستجد من يسعى إليك لتكون بدويه يطعمك ويكسيك ويعطيك مصروف يد وجعلا معينا من المحاصيل، وليس المطلوب منك أن تفعل يابوى، يكفي أن يعرف الناس أنك بدوى فلان الفلاني لكي يتجنبوه ويتركوه في حاله، أو يكون المعتدون أقوى منك فيفعلوا ما يشاءون تحديا لك وللمسيحي الذي يتحامى بك! المسيحيون عضمة زرقاء يابوى فبهذه الطريقة امتصت خناقاتهم مع الناس المسلمين من أهالي البلد! الخناقات تحدث بسببهم فحسب ولكن بين المسلمين وبعضهم فحينما تكون أنت بدويا لأحد المسيحيين وأجيء أنا فأسرق داره أو زرعه أو ماشيته أو أتعرض

له في الطريق بأي سوء فإن هذا لن يخلصك بالطبع وسوف تشعر أن العدوان موجه إليك وحدك ولسوف تنتقم مني شر انتقام ما في ذلك شك خصوصا عندنا في الصعيد!..

دورت في دماغي فعرفت أن «بدوي» هذا الرجل صاحب المخزن هو أعرب رجل في «كوم سعيد» بل في القبايل كلها: عم «عسران زهران» الذي لا شغلة له ولا مشغلة هو في طول عرق الخشب «بدوي»، وفي تخن تليس ملآن، يقول الكبار والعجائز عنه أن عدد قتلاه في عدد شعر رأسه الغزير المهوش تحت تلفيعة حمراء حيث لا لبدة ولا طاقية تستطيع أن تلمه تحتها، غير أنه إهتدى في أواخر أيامه منذ أن اختاره المعلم «ميخائيل بطرس» بدويا له، اذ بسطه وخصص له جلبابين في العام واحدة للصيف وأخرى للشتاء كما خصص له دخان سجاير يشربه وتلاليس قمح وذرة يأكلها هو وأمه وشقيقته العاجزة. شغلته طول النهار أن يجلس تحت قرص الشمس فيعلي ثيابه من القمل والبق والبراغيث المختبئة في حياطة الثياب ورقعها. عم «عسران زهران» هو تسلية كل عيال البلدة، يجيئون له من أقصاها إلى أقصاها «اتفرجوا علي.. أيده!!

أي نعم يابوى، فقد كان لعم «عسران زهران» أير عجيب مرسوم كنخلة صغيرة وكان عم «عسران» يضطر للمشي مفرشحا فإذا عم «عسران زهران» مرميا على الأرض وأيره مرمي بجواره ...... عاطلين، ذلك أن عم «عسران زهران» لم يتزوج قط،

لأن فتاة من فتيات البلدة لم ترض به يا بوى جرب حظه فى بلاد أخرى، لكن دخلته على الناس فى دورهم على هذا المنظر كانت تثير فزع الرجال وتذهب عقول السيدات، ليس معقول أن يرضى به رجل زوجا لابنته، محير للرجال أن يظل هذا الأير العجيب حرا يتناقله الناس من أن يكون حقيقة قريبة منه يمكن لحريمه رؤيته فى أى لحظة، إن أى رجل ياسوى لابد أن يخجل من أيره إذا رأى أير عم «عسران زهران» وبهذ طارده الرجال فى كل زيجة حاولها حتى عقدوا مسيته، فيربت عليه بحنان شديد قائلا «معليش لك رب يسمى الكريم!» وتندو الدموع فى عينيه حقيقة تكاد تطفر أى والله يابوى قادر ربنا يخرسنى لو كنت أكدب!

كنا نتذكر يابوى أن نصف قتلاه من النساء فوجئ الناس بجثثهن مرمية على الطرقات وفى الحقول عاريات ممزقات مزبعد وتكاد تقع من هوسنا نتذكر أيضا أن عم «عسران زهران» اشتغل فى كامب الانجليز سنوات طويلة بأيره لم يكن يعمل أى عمل إنما عليه أن يجلس فى مكان ما فى الكامب معروف سلفا ليظهر أيره منتصبا، وكانوا يسألونه أسئلة كثيرة ويجيب عليها ويأخذ نقودا فى نهاية الأمر تلك كانت حسن أيامه أشدها رواجا ولايزال الناس يتكلمون عنه على أية حال فإن عم «عسران زهران» كان دائما ينهى كلامه بأنه حسن من كافح الانجليز وحاربهم ونكل بهم إذ هو لم يقتلهم فحسب بل هزأ برجولتهم

عم «عسران زهران» يابوى ليس له فى الخناق ولا العراك رغم ضخامة جسمه، كل الناس فى العمايم فتنى يعرف أن عم «عسران زهران» أقوى ما فيه أيره رغم أنه لم يستفد منه فى الناحية التى خلق لها أصلا والمعلم «ميخائيل بطرس» حين اختاره بدويا له كان ذلك لخوفه من أيره أن يفكر عم «عسران» فى استخدامه ضده خاصة أن المعلم ميخائيل واسع الذرية معظمها فتيات يقلن لستنا «مريم» العذراء قومى لنقعد مطرحك ليس المعلم «ميخائيل بطرس» وحده من كان يعمل حسابا لأير عم «عسران زهران»، إنما البلدة كلها والبلاد المجاورة كانت تخشاه، ليس لعدم ثقتهم جميعا فى حريمهم بل لعدم ثقتهم فى أنفسهم، فلو أراد عم «عسران زهران» أن يكيدهم من الكيد فإنه ـ فقط ـ يمشى مشوارا فى شارع داير الناحية وما يتفرع عنها من حارات، يمشى فتراه وهو مقبل حيث يعوص الهواء بجلبابه بين ساقية مجسدا ساقه الثالثة المبتورة عند الركبتين فيصيبك الجنون إن كنت شابا حرا، سوف يكون أول شعور يدهمك لحظتها أن هذا الفحل الجاموس جاء يتحدى أنوثة حريمكم وذكورة رجالكم على السواء!..

صدقنى يابوى أن بعضهم فكر فى قتله، لكن أغلبية كبيرة قنعت بجميع أن قتله خسارة! فهو شىء يستحق الفرجة ولكن فى مكان منعزل

صراحة يابوى كنت معجبا بهذا العم «عسران زهران» إعجابا شديدا كان ثانى رجل بعد «على السايح» يحبب لى ويستوى

على كل جوارحي وحيلي، الأول لأنه قاوم الحكومة وقتلها، والثاني لأنه قاوم الانجليز بايره لكن لما تذكرت أنه البدوي انحاص بالمعلم «ميخائيل بطرس» صاحب هذا المخزن خفت منه، إذ هو لابد أن يعرف يابوي، لأن «عمران زهران» يسهر في قعدته بين المخزن وداره، يعني لابد أن أمر عليه من هنا ومن هنا ذاهبا أو آيبا، وهو رجل عكروت وصرس، لو كان في عز الشخير ومر بجواره من يحمل شيئا أي شيء فإنه يصحو في الحال وينظر فيه، ولابد أن يعرف من هو وما الذي يحمله ومن أي مكان هو قادم وإلى أي مكان هو ذاهب، وإن كان غريبا عرفه في اثنو واستوقفه بشخطة واحدة ويسألون عم «عمران زهران» كيف يتأتى له الصحو المفاجيء عند مرور من يحمل شيئا ؟! فإذا هو يقول أعرفه من وقع خطواته على الأرض! فمن يحمل شيئا تكون خطواته أثقل ودبها على الأرض أشد وقعا وصوتها أكثر رنينا في أذني التي أضعها فوق الأرض بدون مخدة! فكيف أنجو من هذا الرجل يا بوي إذا وفقني الله وسرقت المخزن ؟! هل أقتله وهو نائم ؟! لا أريد بل لا أستطيع!.

دماعي أحد يذهب ويجيء يا بوي، وإذا برجل قادم من عند دوار العمدة يقول أنه سمع الراديو يقول أن الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان تنازل عن العرش لولي عهده «أحمد فؤاد» الطفل وأن الجيش المصري حكم عليه بمغادرة البلاد قبل الساعة السادسة وأن هذا الكلام فات عليه أكثر من جمعة ونحن لا نعرف يابوي

بقينا أياما طويلة نجري على الراديو فلا نسمع إلا غنوة «ع الدوار ع الدوار .. راديو بلدنا فيه أخبار»..

وأخيرا وصلت الأخبار يابوي، عرفتها ممن يفهمون كلام الراديو أخبار مفرحة يابوي وفيها أشياء لا يصدقها المرء، حيث أن البلد انقلبت جمهورية وجاء العصر الذي ينفع الفقراء، لم يعد هناك باشا ولا بك ولا اقطاع، فلما سألتهم «اقطاع يعني ايه يابلديا؟» قالوا لي يعني أرض النصارى وأمثالهم من المسلمين ولسوف توزع على الفلاحين الذين يزرعونها !! وقالوا كذلك أن التعليم صار بالمجان وأن كل الناس مثل بعضهم أمام مراكز البوليس والمحاكم والحكومة" قلت يا أسيادنا قولوا كلاما غير هذا يصدقه المرء ! قالوا كنت بهيما وأذن الله أن تصبح آدميا فافهم يانجم. القصد أني بقيت شهورا طويلة لا أصدق هذا، في كل يوم أزداد جرأة في الهجوم على الحقول وزرائب المواشي وقطعان الغنم فلا أجد من يردني، بل كان يصادفني من يراني عائدا بالسرقة مضطرب الخطوات مبعثر النظر فلا يهتم بي قد ينظر لي نظرة ذات معنى ثم يحول وجهه عني ويمضي في حال سبيله

وسمعت أن ملاك الأراضي يوزعون أراضيهم على أولادهم وأقاربهم كتابة على الورقة فحسب حتى لا يزيد ما يملكه الفرد عن مائة فدان، قلت حلو ثم لاحظت أن أولاد الأغنياء والباشوات والبكوات انكسرت شوكتهم وانطوت وجوههم وهجر الابتسام شفاههم فقلت يظهر أن كلام الناس صحيح وأن الله قد أذن بقيام عدل في هذه الدنيا على أيدي هؤلاء الذين يسمونهم بالثورة

إلى أن جاء يوم رأيت فيه بعض الخدم يصبغون آذانهم عن نداءات أسيادهم! وبعض الفلاحين يتبجحون في مواليهم! وبعض العلاية يرفعون وجوههم وربما ألسنتهم في وجه عسكري البوليس بعد أن كانوا يلمعون له أزرار سترته! وبعض التلاميذ الفقراء يتعاركون بجراءة مع أولاد الذوات ويشتمونهم ببساطة! فقلت في نفسي: الأمر إذن صحيح ياولد. ومن يومها شعرت أن الدنيا قد اتسعت أمامي والدار التي نسكنها بغير سقف صارت قصرا. صرت أمشي مثلما يفعل الخلق من أمثالي. أتباهى بأني فلاح ابن فلاح وأنني صعيدي، أليس عبد الناصر كله من بلدنا؟

ابدى جاء في دماغي أيامها أني يجب أن أسافر إلى مصر، ولم أكن أعرف يابوي أن اسمها القاهرة، لكنني منذ جعلت أهتم بسماع الراديو كلما تواجدت بجواره، كنت أسمع المذيع وليس في فمه سوى كلمة هنا القاهرة! هنا القاهرة! هنا القاهرة! قلت وما القاهرة هذه ياجدعان؟ قالوا إنها مصر يابهيم! التي فيها سيدنا الحسين والهرم والسيدة زينب والإمام الشافعي والأزهر الشريف. صحت قائلا: الذي تخرج فيه أعمامي وأخذوا شهادة العالمية؟ قالوا: نعم. قلت: والله لأسافرن. قالوا: تسافر أنت إلى مصر بحسن ياولد حميدة؟! قلت: أعمامي من قبلي سافروها. قال «ترعي» ولد الفرطوس: مصر لو رأتك انزاحت عن مكانها ورحلت. وقال «هادي» ولد «محيمر العيان»: والله لتغرق. فضحكوا حتى فرحوا على الخلق. قلت لنفسي: وهل هذه مشكلة؟ وتركتهم

وانصرفت، ولكن صوت المذيع بقي في أذني ليل نهار يصيح في حنجر كبير" هنا القاهرة! فأكاد أضع نيل حساني بين أسناني وأطلع عليها. لكن ذلك أخذ مني وقت، ذين جلبابي موضوع بين أسناني على الدوام وكنا في موسم القطن، أهجم على مفارش الجمع فادحرج ركيبة إلى مخبأ آمن ثم أحملها وانطلق أو أملأ حجري مرات عديدة. أكرمني الله وحوشت مايزيد عن قنطارين وفي إحدى الليالي جئت بتاجر من بلدة بعيدة عاين القطن واشتراه بمبلغ حلو أغراني بشراء محفظة بسلسلة مشبوكة في عروة الصديري، فرحت بها أعظم الفرح وقلت لها: إن شاء الله تظلين عامرة، وقلت لنفسي: شيء ممتع أن يكون في جيب الواحد محفظة والأمتع أن يكون في المحفظة نقود، وكل الناس في جيوبهم محافظ ولكن ما كل المحافظ فيها نقود، إنما النقود في أكياس التجار، ومفروضة في جيوب ملاك الأطيان، ومكومة في حرائش تحت الأرض!..

جاءني الهاتف أن لي لقمة عيش مقسومة في مصر القاهرة التي فيها الثورة والجيش وفيها الخير كله والنعيم كله. دخلت على أمي قلت لها: كم يكفيك ياأم أبو أن يحضر به لي عيشا في مصر؟ قالت: يكفينا ما يرزق الله به قل أو كثر. أخرجت المحفظة فمدت أمي كفها وسحبت زغرودة أفزعتني وفرحتني. أخرجت من المحفظة جنيها مددته نحوها وثقنا أنها ستزفض فرحا به وحده معتبرة أنه فضل وعدل. نظرت في عينيها فرأيت هذا فسحبت

الجنيه الآخر وشرعته نحوها: مالوش تاني. قالت باسمة «الجنيه» قلت ضاحكا: بل الله ياوليه. ورحت أعد حتى خمسة. كفى هذا ياأم؟ بسطت ذراعيها رافعة كفيها نحو السماء صائحة: إن شاء الله ما اشتهيك! الاهي يكتب لك في كل خطوة سلامة ياحسن يا ابن بطني! الاهي مايشمت فيك عدو ولا حبيب! الاهي يرزقك برزق اليتامى ويوقف لك ولاد الحلال. خد من قلبي وصر!

شعرت يابوي كأن بدني كله يرتعش ودمي يفور صاعدا نحو السماء برأسي. أخواتي البنات تحلقن حولي صرن ينظرن لي في فرح وبهجة وفي عيونهن رغم ذلك حزن كبير يابوي. أخي الرضيع يتسلق أكتافي يهبشني بأصابعه الطرية ذات الرائحة اللبنية الحلوة فأخذت أقبله في فمه فصار يمصمص في أنفي بضراصيره فشعرت كأنني الأب وهم جميعا أبنائي. فاضت الدموع من عيني فمسحتها ضاحكا بصوت عال وقلت لأمي: خدي يا أم! ليس خسارة فيك ولا في أخوتي! صرت أعد حتى أكملت العشرة جنيهات، وتركت المحفظة تتدلى من سلسلتها كرأس ذبيحة ذليلة، ورفعت ذراعي وقلت لها ما كنت أسمعه دائما من عمي الأكبر الشيخ «عجلان»: اليد العليا خير من اليد السفلى ياأم! هذا كل ما معي من نقود وهي لك. لقد رزقك الله بها وكنت أنا مجرد وسيط وهاأنذا قد سلمت الأمانة وما عليك الآن ياأم سوى أن تعطيني أجرة السكة الحديد لأتوكل على الله من غد إلى مصر إن أحيانا المولى الكريم وأعطانا عمرا! فتحت أمي فمها وصارت

تفكر ومن فرحتها لم تدر ما تقول. وكانت أختي الكبرى «سلمى» جالسة ناسية نفسها فبدا جزء كبير من وركها فرفعت عيني عنها مستغضا فسقط بصري على جذعها الممتد وصدرها العريض ممتلئ فوقف بداخلي مارد من الخوف. نظرت برعبي إلى أختي الثانية «مندوهة» فرأيتها هي الأخرى عروسا تكاد تتفوق على «سلمى» وإلى الثالثة «سعدية» فرأيتها تملأ القلة واقعة وتميل بالكوز لتغرفه من الزير فتبدو وكأنها تشاغب خراط الست الخبيث الذي يشكل مؤخرتها في كل ميلة باستدارة جديدة وينحت خصرها في كل استدارة سحبة تفرق المسافة بين خصرها وصدرها النافر ويطيل من رقبتها المسرحة المبرومة ويدهن وجهها البيضاوي كما يدهن وجه الفطير بالزبد والقشدة ويوسع من عينيها السوداوين تحت العصبة المشغولة بالفل والترتر. وبحثت عن أختي الرابعة «هندية» فوجدتها قابعة قرب الباب منهمكة في صنع عرائس الطين. وكانت الدموع تريد أن تضغط على عيني يابوي، لكن ولدحالك سيد من يكتم الدموع. عندئذ أختي الكبيرة «سلمى» وقالت لأمي: أعطه خمس جنيهات يحلها ياأم! فسوف يتغرب وليس له من سند غير الله والقرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود وليس أسود من أيام الغربة ياأم! وقالت أختي «مندوهة» بصوتها الناعم الدامع إلى البكاء باستمرار دون أن يبكي: ليس خسارة فيه ياأم. إنه الرجل وهو الذي يأتي بها. وقالت أختي «سعدية» بصوتها الرجولي الجميل ومن بين شفتيها الغليظتين: ربنا يخليه! لسنا نطلب من الله غير صحته

ونفسه في الدنيا. أما أختي «هندية» فقد استدارت نحونا عائدة تمسح يديها في ثوبها ووجهها كله عبارة عن بسمة لاهية كأن شيئا لا يدور حولها ولكن في عينيها بريق الانتظار لأي خدمة تطلبها.

يومها أكلنا ذكرا من الأوز المزغط من شهر مضى، ومن صبيحة ربنا صررت هدومي كلها في جعبة من الورق مكتوب على وجهها شاي رورو ولها مساكة من الطرفين من خيط مبروم ملون بمر حلال كسولات، كنت قد اشتريتها من مولد القنائي بقرشين من خمسة وعشرين قرشا نشلتها من فلاح شارد ذاهل داخل الملاهي. عصرتني أمي بحبيبين مطويين أربع طيات وقالت لي ربنا معاك ياولدي، ثم احتضنتني وقبلتني. قالت أختي «سلمى» وهي تداري الدموع في عينيها وتتمخط في ذيل جلبابها خل بالك من نفسك ياخوي. لاتختلط بأولاد الحرام وأهل السوء! فقلت لها كله على الله ياأختي، ثم احتضنتها وقبلتها. وقالت أختي «سعدية» بالسلامة ياخوي ترجع لنا غانما ثم احتضنتني وقبلتني. وقالت أختي «مندوهة» وهي تعتقل صوتها وكلامها خوف الانفراط في البكاء: مع السلامة ياخوي، وأغمضت عينيها وتركتني أقبلها على جبينها. وحملت أختي «هندية» جعبة الحلقات وظلت وهي لاتزال تبتسم سابقاك على المحطة ياخوي. فنزعت الجعبة من يديها قائلا: والله ما يكون أبدا، إن محطة السكة الحديد منصوبة في بلدة أخرى ولست آمن عليك الرجوع وحدك، ثم

احتضنتها وقبلتها، ووليت وجهي نحو الباب وخرجت، وبقيت عيناي مسمرتين على الهواء في الطريق لا ترمشان خوف انهمار الدموع. لكنني كلما صادفت أحدا في الطريق رفعت ذراعي بالتحية دون أن أنظر إليه صائحا: أشوف وشك بخير، فيقول لي مع السلامة ربنا وياك.

ألقيت نفسي على كرسي القطار بجوار الشباك وجعبة الهدوم على ركبتي، فلما صفر القطار وزحف، ورجعت إلى الوراء كل معالم البلدة انهمر الدمع غصبا عني، فأغمضت عيني وتركته يسح كيف يشاء، حتى نمت، وكلما فتحت عيني ورأيت الأرض والغيطان تتلاحق والشجر يتراجع خلفي نمت وغطست في النوم من جديد حتى صحاني واحد من الصعايدة قائلا: إننا صرنا في باب الحديد. قلت وما باب الحديد هذا ياولد بلدي؟ قال: بوابة الدخول إلى مصر من المحطة. قلت: هل وصلنا الآن إلى مصر؟ قال: حمد الله على السلامة. صحت قائلا من فرحي: هنا القاهرة. ضحك كل من في عربة القطار وراحوا يتساقطون على الرصيف ويدفعونني بينهم وسط زئيط هائل وأرصفة عديدة وسقف من الحديد والجملون وكمسارية وشيالين وباعة جرائد وفول وداني وحلويات وشاي وكازوزة وماسحي أحذية وزيطة ورسبطة. فلما صرت في الخلاء كانت يدي قد أمسكت بالورقة المكتوب فيها اسم رجل سيدتي بعمر مقاولا للأنفار هنا ومقر عمله جبل المقطم.

ما له من ثان

الأولة. مقابلة شخصية مع الدنيا

دمى أولاد الحلال على جبل المقطم ولكن أحدا لم يستطع أن يدلني على بلدياتي. أمس وأنا أسأل عنه بين المعلمين عثرت على بلديات آخرين كثيرين، منهم رجل من بلدة «أولاد الياس» شغلته تكسير الجبل بالديناميت. قال لي: «تريد تشتغل؟» قلت: «نعم». قال: «كم تطلب أجرا؟» قلت: «لا أعرف». قال: «أعطيك عشرة قروش بحالها» قلت: «متشكر». قال: «تعرف هذه الشغلة؟» قلت: «أتعلم». قال: «شغلتك معي أن تحمل قطع الحجارة من قمة وتنقلها إلى بعيد!» قلت: «ماشي! ربنا يعينني!».

دور فالثاني فالثالث فالرابع عشر، جاءت الظهيرة وتدلدل لساني من العطش، وصرت أجرجر قدمي وأتألم من ورم يطبق على سطح دماغي، والرجل ينظر لي ضاحكا. هات يدك ياولد عمتي، تحسس هذه البقعة في رأسي. هذه. ضع أصبعك مكان أصبعي هذا فوق قمة رأسي بالضبط. ثم هذا الذي تلمسه يدك؟ إنه دمامل متجمدة فوق رأسي أليس كذلك؟! إنها من أثر الشيل

في يوم واحد هو ذلك اليوم الذي أنهيته بالضالين، ورحت أشرب جرعة ماء من عند رجل آخر مجاور، شغلته نفس شغلة صاحبي قال لي: انت منين ياشاطر؟ قلت: من الغنايم ياآبا. قال: أحسن ناس! تجيش تشتغل عندي؟ قلت: وهذا الرجل الذي اشتغل عنده؟ قال: لا يهمك منه؛ سأعطيك اثني عشر قرشا في اليوم ولن تحمل دشا؛ ستمسك لي الغتيل أثناء ما أشنع. قلت: إن كنت تحميني من الرجل الآخر أهلا وسهلا. قال: خليها على الله المقصود. بت في محجره ذلك المساء، في الصباح اشتغلت معه، يوم يومان جمعة شهر أربعة أشهر، أرى بين يدي مائة وخمسين قرشا أرقص من الفرح إلى مكتب البريد أرسل المبلغ لأمي.

غير أن الفرحة تقلص سنوي وساق لؤم علي. بدأ يشيلني فقط الدبش هو الآخر حتى امتحنت رأسي. الرجل كان يسكن في حي اسطبل عنتر بجوار دار السلام على خط المعادي من الطريق امر عن وعد أحسن أسير أنوي التملص منه فأرى أن يستبقيني بصنعة بطء قال لي أنس بدت بية في اسكن ياولدي قلت لدي قال: تسكن في اسطبل عنتر؟ قلت: اسكن في أبي زيد الهلالي نفسه. قال: اليوم تذهب معي إلى البيت.

في حارة تبعد عن الحارة التي يسكن فيها بحوالي خمس حواري فرجني على عشة مدفونة بين صف من العشش مليئة بالحريم والعشر و... أجرها خمسون قرشا في الشهر، فتت بركه ورشي، وبعثت إليها حصبة هدومي، وفي الصبح اشتريت حصيرا

ومخدة وبطانية جيش قديمة وقلت لنفسي هاأنت قد أصبحت ذا بيت في مدينة الحسين والأزهر والسيدة.

كل يوم أفوت على عربة من عربات الفول «أشمط» ثلاث أربع أرغفة مع طبق الفول أبو زيت حار وحزمتي البصل فيخيل لي أنني قد صرت أبا زيد الهلالي سلامة، وأتكل على الله صاعدا الجبل لأتقابل مع الشمس في فتحة المحجر. وفي طريقي كل يوم أمر على الكورنيش لكي أتفرج عليه فأرى السماكين في مصر القديمة يفرشون بأسماكهم صانعين سوقا كبيرة منظرها يفرحني. وكانوا كلهم يبيعون. وكنت في الأساس أفكر في شراء سمك آكله. لكنني صرت أدمن الفرجة ولا أشتري أبدا، إلى أن وقفت ذات صبيحة أتفرج على رجل وهو ينقل زنابيل السمك إلى عربة نقل وكان يحمل وحده فلما رآني قال: مايدك معاية واسعى بالدنيا. فشمرت ثوبي وحملت معه الزنبيل، ثم ساعدته في غيره وغيره حتى انبسط مني وقال لي: تشتغل معي؟ قلت: تعطيني كم؟ قال: أعطيك ريال في اليوم. قلت: قليل. قال: خمسة وعشرين قرشا ولا مليم بعدها. قلت: على بركة الله. قال: فاركب. فركبت بجوار السائق وانطلقت بنا السيارة إلى المعادي، حيث يوجد لهذا الرجل محل كبير يبيت فيه الأسماك.

لص أنا قيراط، أما هو فأربعة وعشرين قيراطا في اللصوصية أي والله ياحاج. تعلمت منه الكفت بحال. مهمتي كانت الجلوس أمام حوض السمك الذي يشبه قدرا من الألومنيوم، أتمصص على

الزبائن وهم ينتقون الأسماك ويضعونها في القراطيس قبل الذهاب إلى الميزان الذي يقف المعلم قصاده. وكنت أظن أن واجبي نهر الزبائن ومنعهم حين أراهم ينتقون السمكات الصاحية كلها في قراطيسهم، حيث أصيح فيهم قائلا: ومن الذي سيشتري هذا السمك الصغير بعد نقاصته البيع عندما كله في رقاب بعضه الكبير يزن الصغير. فبعض الزبائن يصيح في محتجا، وبعضهم لا يسأل في وينتهز فرصة الصياح فيملأ قرطاسه بأطيب ما في الحوض من سمك. فأصرخ فيه منبها أني لست نائما على عيني، وأقف مسرعا فآخذ القرطاس منه وأدلقه في الحوض. حاجات طريفة ومسلية كانت تعجبني فأفعلها بلذة كبيرة. هنا يشخط المعلم في - للزوم الصنعة وإتقان المعلمة - يأمرني بأن أترك كل واحد ينتقي على كيفه، صحيح أننا سنبيع السمك المتبقي بالخسارة ولكن الزبائن في النهاية هم زبائننا والمحل محلهم!

شيئا فشيئا بدأت أغفل عن الزبائن وأنتبه إليه هو، أراه ينتقي للزبون بنفسه ما يختاره الزبون، ويأخذ القرطاس ويستدير معطيا لنا ظهره العريض واضعا القرطاس على الميزان، فإذا به رغم امتلائه يحتاج لسمكة صغيرة حتى يكتمل الرطل، أو معها أخرى كبيرة مغرية ليصير الوزن رطلين ونصفا في حين أن الزبون طلب رطلين فقط، لكنه إكراما للسمكة الكبيرة يقبل الزيادة. يعطيني المعلم القرطاس لأضع عليه ورقة أخرى وأطوي عليه حوافيه. أنظر في القرطاس فلا أجد السمكات الكبيرات الكثيرات

التي رأيت الزبون يحشرها في القرطاس حشرا، فأتحول وبروح مني يضرب بقلب.

المعلم لم يجد مفرا من تعليمي سر المهنة لكي أتصرف أنا إذا ذهب هو إلى السوق وقضاء المشاوير. تعلمت منه أن أول شيء أفعله بمجرد دخول الزبون، أن أسارع بفرم قرطاس كبير واسع ثم أقف أمام الميزان الموضوع على بنك عريض وحوله الصنج. أترك الزبون ينتقي بيديه ما يشاء من الأسماك الكبيرة، وبخفة يد الحاوي أكنس جانبا كبيرا من الأسماك الصغيرة الميتة وأملأ بها قمع القرطاس جاعلا رؤوسها في القاع وذيولها في الخلاء، وإذ يناول الزبون كفي، أستدير نحو الميزان معطيا للزبائن ظهري فاردا كوعي قدر ما أستطيع، وفي لمح البصر تكون يدي قد سحبت السمكات الكبيرات من رؤوسها وتركتها تتسرب إلى برميل كبير موضوع تحت البنك. أعرف طبعا أن الزبون عندما يصل إلى داره ويرى السمك سيرتاع لأنه لن يجد سمكة واحدة مما انتقاه. فإذا فكر في الرجوع لي فمن يخلص مني، خدوهم بالصوت لئلا يغلبوكم، أصرخ فيه الهيه وأدعيه أفرج عليه أمة محمد، مذكرا إياه بأنني ورثت ما أعطاه لي بنفسه. هو في الغالب لا يرجع، وبعضهم قد لا يلحظ. وإن تكشف لي أن الرجل الذي استكردته مهم ويملك قدرة الإضرار بي فأمسي مصطنعا لطافة أبيعه وأشتريه، أغسله وأكويه، ولكن بالأدب كله بالأدب يا آبا، أمال تقول لي كيف أنشره وأطويه أغسله وأكويه أبيعه وأشتريه؟!

الأمر بسيط يابوى، سر النجاح هو الأدب حتى لو كان أدبا مزيفا لا أصل له ولا فصل. نعم ياسعادة البيه! أنا متأسف خالص يأفندم! لعله قرطاسك تاه فى قرطاس آخر فضل طريقه إلى فارغ عين رضى به على عياله! وفى هذه المرة أزن له ما يختاره بالعمل وأعيد فحصه عليه واحدة فواحدة ومع السلامة ياسعادة البيه ألف ألف سلامة يأفندم دا محلك وأنت تأمر والغالى يطلع لك!.. سواء لدى أن فهم سيادته أنني أكل بعقله حلاوة أو لم يفهم فإنه فى النهاية يؤكلنى عقله بإرادته بمزاجه ويكون على قلبه أحلى من العسل، البرايز والشلنات تتدافع تحوى بغير حساب فى كل مرة يجيء فيها وأنا نازل فيه أكلا بالطول وبالعرض وبالماكوسى قبة ومساحة!! إن أعطيته شيئين اثنتين شيلته على شرفهما خمسة ستة أرطال سمك لا يمكن بيعه وحده ولو بالمجان مع أننى بعته له بسعر الثمين العالى يدفعه صاغرا وهو يقول سبحان الله والحمد لله!. الدنيا يابوى تحب الشطارة والأونطة وهذا ما بان لى فى القاهرة فآه منها ومن أهلها آه! .

تعرف؟! هذا الدرس – صدقنى ياخال – هو الذى حببنى فى هذه البلدة وكتب لى عيشا فيها. إنه درس غويط ياخال، غويط من هنا لحد الصباح، فهمته وحدى، بالفهلوة قل بالبركة والتكال على الله يجوز، إنما وجدتنى ذات ليلة مكفنة بالضباب الأسود العطيس، وأنا داخل فى عشة فى اسطبل عنتر على مرسى النيل تبيع الشاى والدخان المعسل، وكنت أشد النفس من الجوزة بعمق حين

دوى الدرس فى دماغى كأنه المعنى كأنه الآية المنزلة، وصوت كأنه صوتى يعربس فى حسى قائلا الحياة لم تتغير ياأبا على! لا تظن بنفسك انتقلت من حياة التشرد واللصوصية إلى حياة التحضر والمدنية والثورة الاشتراكية المباركة لا! لا يا حسن وألف لا! إن الحياة هى الحياة فى الصعيد أو فى القاهرة، بل إنها فى القاهرة أمطع، السرقة فى الصعيد تتم فى ستر وتكتم وبقسوة تهدر فيها الدماء وتطير الرقاب!! أما فى القاهرة فالسرقة تتم فى وضح النهار عيانا بيانا على عينك ياتاجر – أقصد يابوليس! غير أن السرقة هنا فى القاهرة ياخال سلاحها الأونطة والنعومة والميوعة! الحشوية لا تنفعك هنا؛ سوف تجرح الآخرين وأنت تنفذ بينهم إلى أغراضك فيلفظونك أو يضغطون عليك يفطسونك! نعومتهم كنعومة جدران المعدة قوية تهضمك تحولك إلى خراء يتبرزونه فى المجارى والطرقات وهتف آخر مثلك يطف وراءهم!..

ولد خالك ياولدى ابن ناس طيبين كما تعرفه لا يغرنك أنه طول يده على بتاع الناس وسرق من عيطان الصعيد الطافحة مما يستحق أن يسرق. أنا فى النهاية ابن أعاظم الفقهاء وفى عروقى وقلبي الكثير منهم، أعرف الله مثلهم وكنت صبيا أسرق وأنا صائم فى عز الحر، وأصون الأمانة والله ياخال، المعلم السمك يترك لى محله اليوم بطوله وحين يجيء يفرغ الحصالة فى جيوبه وينصرف ولا حضرته، يعمل على واعيا! إن كان واعيا قيراطا

فأنا أفهمها وهي طائرة والأمر على هذا النحو يا حاج. ما الذي يدعو رجلا كهذا لأن يثق في كل هذه الثقة مع أنه لم يعرف أي شيء عن حياتي؟ إنما هو يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول عمي الكبير، يوهمني أنه يعطيني الأمن لأكون محل ثقة ويوهمني من ناحية ثانية أنه لا يعد ورائي فيغريني أن أستغفله حضرته لم يكن يعرف أنني موقن من أنه ينزوي في ركن قصي ويفرغ جيوبه ويعد الغلة بالمليم، مثلما أنا موقن من أنه سيجدها بالمليم كما حسبها

ذات يوم جبرنا الله وشطبنا في بحر ثلاث ساعات، جاءت الغلة بملات وميرات وبقي من السمك حوضا صغيرا اعتبره المعلم زائد عن الحاجة بيع أم لم يبع. فانصرف المعلم إلى بعض شأنه وأوصاني بأن أتصرف في هذه الأسماك كيفما اتفق بأي ثمن، فإن تم لي ذلك أغلقت الدكان وانصرفت قلت: الله معي. جلست هب للنبي هجمت الزبائن هجمة ثانية. عبيء ثلاثا! عبيء أربعا! عبيء خمسا! أخذت أبيع بنفس الطريقة التي علمنيها صاحب الدكان، بنفس السعر الذي بعنا به الثمين في مطلع النهار، حتى ادخرت في النهاية حوالي عشرة أرطال من سمك منتقى جاءت من نصيب امرأة عندورة سحرتني بعينيها فأثرت لها ما أخفيه تحت ورق الشجر الأخضر، تخاطفت يدها الملاءة فانفرطت عن قوام كالفرس لهلبني فكشفت الورق الأخضر فبانت طبقات الأسماك

[illegible] نهاية كالموج المتلاحق قالت: بكم؟ قلت: بالصلاة على النبي. قالت: اسم الله صل وبارك عليه. وكطفل يخشى من لمس لوحة معروضة في معرض مدت إصبعها خلسة ولمست إحدى السمكات [illegible] سريعة وقالت: زن. فوزنت، وأعطتني ما طلبت وتركت القروش المتبقية. إلا وصاحب الدكان قد أهل داخلا، كانت النقود [illegible] لا تزال في يدي حين دخل صاحبنا إلى الحصالة، إذا به [illegible] يرفعها في جيبه ويمضي قائلا: يلا شطب نفي وقفل. على الدم في عروقي. وضعت نقود الوزنة في جيبي وقلت: استنى عشان [illegible] مفتاح دكانك. قال دهشا: مش حتفتح بكرة؟ قلت: إن أحيانا [illegible] وراني مشوار لحد الصعيد. وأغلقت الدكان وسلمت له المفتاح ومضيت

في المساء جاءني في المقهى التي يعرف أنني بدأت أجلس عليها في إسطبل عنتر. صاحبها من بلدة مجاورة لبلدتنا ويعرف أعمامي منذ صغره، وكانت خطابات أمي تجيئني على هذه المقهى، وهي مقري الذي يسأل فيه الناس عني ويستدلون منه على أصلي وفصلي. أول ما شفت المعلم أسماك مقبلا قمت إليه وطلبت له الشاي والذي منه ثم قلت له: «شوف يا حاج! واجبك تاخده لكن شغل عندك تاني لا». لماذا ما السبب؟ قلت: «هكذا! أنا الآن خاضع للشيطان الأمر بعدم الشغل وأي كلام في أمر الشغل لن يفيد» سلم علي وانصرف.

جلست مجعمصا يابوى وأنا فى أتم سعادة وضعت رجلا على رجل أخذت أطرحها فى وجه الزمن سرح دماغى لطشه الهواء نعشه شعرت بلذة كبيرة تخلصت من هذا الرجل اذ هو لص وحلوف لكن ماذا سأفعل غدا؟ هذا ما لا يريد دماغى أن يكلمنى فيه الآن! عاندته، قمت من لحظتى إلى محل شكله خواجاتى فى حارة قصية من حوارى مصر عتيقة، اشتريت منه زجاجة صغيرة يسمونها الخمسينة وفيها خمرة يقال لها الكونياك، وعدت بها إلى بلدياتى حيث لزمت الظلام المكوم فى أقصى الرصيف فى دورة كشك السجائر. جلست مجعمصا وكل حين أفتح الزجاجة وأرشف منها رشفة وأقرقر الفول السودانى ماذريت كم الساعة حين انتهيت إلى أن الزجاجة الفارغة قد أخذت تكر على الأرض رائحة جائية حسب اتجاه الريح. كنت سكرانا بحق ولكننى منتبه إلى كل شىء، أردت أن أؤكد انتباهى ويقظتى فنهضت واقفا ومضيت بضع خطوات وأمسكت بالزجاجة فوجدتنى أقف بها حائرا فى وسط الطريق، فألقيت بها إلى بعيد وهدفى أن تسقط مباشرة باحكام النشان فى قلب صفيحة قمامة معلقة فى عامود نور من خلف هديم، الا أنها اصطدمت بالعمود وهوت على الأرض هشيما فجلست ارتعش كطفل صغير أتى ذنبا عظيما لحظتها رأيت المعلم «شندويلى» صاحب المقهى يرص كراسيه فوق بعضها استعداد للتشطيب وكنت قد رأيت السماك أثناء انصرافه قد انتحى به ركنا وراح يحدثه فى أمرى وهو يهز رأسه فلما لم يعد سوى الكرسى

الذى أجلس عليه سحب هو كرسيا وجلس بجوارى ومد يده لى بسجارة، تقبلتها شاكرا وأشعلت له ولى، شعشع النفس فى دماغى فصحت المعلم «شندويلى» بقولى «ألست بلدياتى يامعلم شندويلى؟» قال «نعم» «هل فى هذا شك يا أبا على؟» قلت «تحب الخير؟» «تعرف أننى ابن ناس طيبين أم لا؟» قال وهو يغمزنى بعدساية أفيون: «ربما لا تعرف أهلك أكثر منى.. اسألنى أنا عنهم» قلت «يعنى اذا ميلت عليك ذات لحظة وقلت لك يامعلم شندويلى سلفنى عشرة جنيهات فهل تأمننى وتفعل؟» قال منشوحا فى وجهى «لو عيل من عيالى ياأبو العم» قلت ـ ولولا شعشعة الخمر ماجرؤت «أنا يا أبو العم محتاج لسنونة» دس يده المحشمة فى جيب المريلة ـ التى لم تكن تليق على شكله وقوامه الصعيدى أبدا ـ فأخرج ورقة بعشرة جنيهات لكربى بها صائحا بصوت جهورى «على بركة الله لعلك تسكر بها مثلما أنت سكران الآن» فأفقت فى الحال يابوى واعتدلت، قلت له «من علبى ياأبو العم لكن أطمئن على» قال «أنت حر»، ثم أردف «كل انسان فى هذه الحياة معلق من عرقوبه» قلت «نعم كالذبيحة» قال «براوة عليك فهمت تفهم هذه وحدها عرقوب النبى آدم هو آخر عصبة فى كعب القدم. وأنت بكعب قدمك تصل إلى مكان الخطاف افهم ذلك جيدا ياأبو العم وبعدها توكل على الله» وكنت قد فهمته بالفعل حق الفهم.

في الفجر كنت واقفا في وكالة السمك بعمرة تسوقت تشكيلة ثمينة من البلطي والبوري والبياض والقراميط ملأت سلتين وضعتهما فوق بعضهما، استأجرت ميزانا بصنجة وضعته فوق السمك. حملت ذلك فوق رأسي مضيت أبحث عن مركبة توصلني إلى الضواحي والمناطق البعيدة مثل المعادي وحلوان ومصر الجديدة وجاردن سيتي والهرم، أختار الشوارع النظيفة ذات البيوت المهيبة «طازج ياسمك» هكذا أروح أنادي. يطل على هذا ويتوقف ذاك. أوزن ياعم أوزن ياعم أوزن ياعم جبرنا والحمد لله..

احلو الحال ياخال أخذ المعلم «شدويلي» جنيهاته العشرة عرقى معلم في الوكالة يدعى «الحباك».. صار يمدني كل يوم بما أشاء، على أن أعود إليه عصر كل يوم لأحاسبه مختصرا عرقي ورزقي كل شيء نصيب يابوي، كنت ماشيا في شارع من شوارع المعادي المتشابهة لا اسم له بل له كالمساجين رقم معلق على صدره بفاتلة زرقاء أيضا. وكان الله قد جبرني ولم يبق معي سوى حوالي عشرة أرطال صممت على بيعها بالسعر الذي أبيع به لسكان الفيللات والسرايات، السعر «القرسطقراطي» للحي «القرسطقراطي» هكذا أفهمني المعلم يابوي. طازج ياسمك. هكذا كنت أواصل الصياح بصوت عال متحمس لا يفيظني فيه غير أنه صوت صعيدي لا يزن كأصوات العيال البياعين أولاد البلد، المهم، مادريت إلا وبواب أسود مهيب يتكفى بالأبيض الشعاف الناصع

ويتواجد البياض بين شفتيه وفي عينيه صاح بي وهو يقبل ... «تعال ياولد» ظننته يبغي الشراء فهرولت نحوه ثم أقعيت ... العطاء عن السمك، فإذا هو ينهضني بيد غليظة ويسلمني ... أحمد الشعر أشيب أصفر الوجه والعينين ذي شارب ... متحرف. قبض على كتفي وراح يطوحني في الهواء ... «ايه اللي جابك هنا يا ابن اللي واللي واللي» شتيمة ... قة يابوي من نشر الوساخة النتنة لا أتوقع أن أسمعها في ... لحي «القراسطقراطي» هذا صرت خرقة في يديه يفعل بها ما ... وأنا أصفق كفا على كف وأقول. «ماذا فعلت بحق الله يارب ... ايه ياسعادة البيه.. أنا غلطان ياسعادة البيه حقك على ... «سعادة البيه» وسعادة البيه النق رأسه وألف سيف أن يسلمني إلى البوليس! العفريت الذي طلع عليه البوليس أبكي أنا بحرقة وهو يصيح في البواب بغلظة «أطلب البوليس قلت لك»!!

... وكيل يابوي. ماكدت أتمها إلا وانفتح شباك مواجه أطلت ... سيدة جميلة تطل من عينيها شخصية قوية ذات سطوة ... صاحت في الأفندي والبواب «سيبوا الراجل في حاله»، فكأنها ... أمر حاسم مجاب، انفكت قبضة الأفندي عن كتفي، وكسكس ... البواب متواريا عن الأنظار رحت أعدل ثيابي وألم بضاعتي، إلا والسيدة تصيح بي: «تعال هنا يا راجل انت.. لف وتعال» فنظرت ... حيث أشارت فتعين على أن أدخل من باب الفيللا وأصعد السلم البعيد على اليمين. صرت على باب كبير مفتوح

والمرأة واقفة في فتحته تدرك الحلاق فيما حلق. جعلت أنظر إليها في بلاهة البهيمة تفاجأ أمامها بوليمة تبدو مباحة. نظرت هي في عيني فكسرت نظرتي. قالت «أمرني». فأنزلت حمولتي وكشفت الغطاء عن السمن. زامت في رقة ثم قالت «بكم؟». قلت «بكذا ولأجل خاطرك بكذا». قالت «زن». فوزنت كل ما معي فأخذته وغابت في الداخل، ورحت أرقب ظهرها ياحاج وهي تمشي، الفتنة تمشي على قدمين ياحاج. فقلت لنفسي عساها تكون الندّاهة التي أسمع عنها في الحواديت تنادي أناس بأسمائهم في الليالي الحالكة متنكرة في شخصيات معروفة لهم لكي توردهم موارد الهلاك؟ ثم قلت لعلها الدنيا الفاتنة تزمع أن تريني نفسها بعد مر الشقاء!! ثم رفرف قلبي ورقص عاليا لكنه خفق واهتز مع خاطر يقول لعلها الساحرة التي تطلع للصعايدة في المدينة لتشتري ذكورتهم الفتنة بكنوز الدنيا كلها! أي وحق الله يابوي ما ظننت أن امرأة فاتنة كهذه تطلع لي من تحت طقاطيق الأرض لتنجيني من خطر قابض علي وفوق ذلك تشتري كل ما معي بالسعر الذي طلبته! ظللت أتوقع مفاجأة عظيمة وهي تقبل من الداخل حاملة ورقة مالية كبيرة. فلما رفعت عيني عنها تأدبا اصطدم بصري على الحائط المواجه بصورة كبيرة في برواز كبير لجمال عبد الناصر وأخرى مثلها لعبد الحكيم عامر وتحتهما صورة لضابط بالملابس العسكرية لم أتعرف عليه ولكن على صدره وكتفيه نياشين وتراويق وضبابير ونجوم كثيرة. فرفرف قلبي من جديد

كطير مستعد للهبوط على عشه الآمن. تناولت الورقة المالية لكنه غير منتبه إلى أن المرأة تقول لي: «خذ ياراجل ولا تجيء هنا ثانية»! قلت «حاضر ياست هانم»، وكان يداخلني شعور بأن هذه امرأة تتكلم لمصلحتي. أخرجت كيستي القذرة الرخوة وفردتها وجعلت أبحث عن فكة، لكن المرأة مدت يدها الممتلئة المنتفخة الحافلة بالأساور والخواتم نحوي قائلة «مش مهم! مش مهم!». رفعت بصري إليها محاولا التلكؤ، قلت: «كيف ياست هانم! الحق حق وحضرتك تستحقين ثلاثة أربعة جنيهات». شوحت بذلك «مش مهم! خليهم علشانك بشرط ألا تجيء هنا مرة ثانية». حارت نظرتي والله ياحاج تحاول اختراق عين المرأة ومعرفة القصد الحقيقي من هذا الحادث المهول. ولابد أن منظري لحظتها كان مضحكا، حيث اشتعلت البسمة على شفتيها فأضاءت المقلوب على وجهها الجاد الحاد الناعم المنتفض. لممت نفسي بسرعة وصرت أخطو خطوة وأنظر ورائي منتظرا أن تغير المرأة الفاتنة رأيها أو يقبض على شرطي. صرت والله أجر خطواتي على السلم كأن قوة تشدني بالأوباش إلى الوراء، فلما سمعت الباب يغلق من ورائي ضربت جبهتي بقبضتي وأيقنت أنها الدنيا وقد أقبلت علي بالبعض طبقا للحلم لكنها فرقت بيننا واحدا انحرف شيء في الزمن في الأمر لا أدري ياحاج! لماذا غيرت الدنيا الفاتنة رأيها في آخر لحظة بعد أن نادتني بنفسها بعلو حسها طاردة من الوحوش المؤذية فتحت لي بابها على وسعه أرتني لحمها

المقدس عاريا تحت غطاء شفيف أي على أهبة اتخاذ الخطوة الأخيرة التي كان يتعين على وحدي أن أخطوها برفع هذا الغطاء الشفيف والدخول إلى المدائن المسحورة لكسي من عبوتي وتحانة محى لم أمص!" ألهذا صعر شأني في نظرها فاحتقرتني وردتني عن بابها بلطف واكتفت بجبر خاطري مصحوبا بتحذيري من الحومان حول سورها ثانية؟" محى تترجل يابوي! لابد أنها كانت تنتظر منى أن أدخل وراءها بجرأة أريها حقيقة نفسي التي تحت هذه الخرق الرعرة، لم لا نكون لا؟! لم لا نكون نعم؟! " فدنيا فاتنة، وكل فاتنة عابية، وكل عابية دواؤها قوة الذراعين والشكيمتين والعينين، ان توفر ذلك في رجل مثلي استطاع أن يلوي خزامها بركبتيها الذيب مهرة شرسة ان لم يكسر شراستها ركيب حقيقي فارس حقيقي سابت وانطلقت تبحث عمن يلوي منها الحزام يعصبها لا يتركها الا مصاصة قصب.

صدقني ياخال انني حتى هذه اللحظة لازلت بكل نفسيتي وكياني وربما جسدي واقفا عن بوابة الفيلا معطيا ظهري للسلم الصاعد إلى شرفات النعيم أخاير ذهني ويحايرني فيما يجب أن أفعله. ولكن أفعل هذا يابوي؟ إن صوتها الأمر الناهي يمنعني من أي فعل.

احترت جانب الأمان بالطبع، حرمت على نفسي السير في مثل هذا الشارع ثانية

الثانية ـ كيف شردتني التسعيرة ؟!

في صبيحة يوم بعد انصداد نفسي عن العمل أياما يممت شطر حلوان بحمولة كبيرة بسعر أقمت فرشا على تخوم سوق مجاورة لمحطة المترو فردت موازيني، فحضرت الزبائن وبدأت وفودها .. نلكا عندي وبدأت أزن واقبض والحال آخر سبهللة، المفروض أن أبيع - حسب التسعيرة ـ الرطل بثلاثة عشر قرشا ونصف للبلطي الكبير، وتسع قروش للمتوسط، لكنني كنت أبيع بخمسة عشر قرشا، في رقاب بعضه الكبير يسند الصغير

رن الكف على مقربة مني فارتعب قلبي، عرفت من صوت ارتداده انه سقط على قفا واحد من بني عمومتي، فمثل هذه الرنة لا يصدرها الا قفا من اقفيتهم! سبحان الله! اللهم اجعله خيرا! ... عيني إلى جواري حلسة، رأيت معاون الشرطة والمخبرين يحاصرون بائع الفاكهة المجاور لي والمعاون لايجد لغة للتفاهم مع الله اذ... سوى الضرب على القفا بكل هذه القوة لو كنا في ... ورن هذا الكف على قفا أي مخلوق لطارت فيه رقاب ... قيامات أما هنا فالدنيا كلها تنقلب عليك في لحظة

وتحاصرك الدبابات لو جحرت في وجه الحكومة. نظرت للزبائن الواقفين أمام فرشي ورجوتهم بحق الديانة والأمانة أن يقولوا للمعاون إذا سألهم أنهم اشتروا بثلاثة عشر قرشا ونصفا حسب التسعيرة فهزوا جميعا رءوسهم وقالوا في ثقة واطمئنان «دع عنك لا يهمنك» إلا والمعاون زاحف نحوي بموكبه الشعبوي «بكم تبيع ياولد؟» قلت: «بثلاثة عشرة قرشا ياسعادة البيه حسب التسعيرة» فرن الكف من جديد على قفاي هذه المرة ساخنا لاهبا تطايرت له شرارات النار من عيني، صحت دامع العينين «كيف تضربني هكذا ياسعادة البيه؟». زعقني رجاله «صاح هو قائلا «بع بتسع قروش ياابن الكلب». قلت «حاضر يابيه». ماكدت أتم كلمتي حتى كان الزبائن قد هجموا على السمك فعبأوه في قراطيس صنعوها لأنفسهم ووزنوها على هواهم وراح معظمهم يرمي لي بتسع قروش ونصف شلدت مقابل خمسة أرطال! في لمح البصر كان «متاع الناس» قد انتهى، صرت أصرخ وأمسك في خناق المعاون والمخبرين «متاع الناس ياولاد ديك الكلب! هاتولي متاع الناس! خربتو بيتي يكفره».. وهم جميعا يضربونني بالعصي والأحزمة والشلاليت حتى سووني على الجبين وتركوني جثة تفشخ حنكها بكية وأمامها بقايا متاع ونصف قروش وأطلال فرش وصنج يبعثرته الأقدام في زحام السوق!!..

...ب إلى مسكني في اسطبل عنتر، حصرت خسائري فوجدتها ... مما تصورت. لقد أخذت من المعلم «الجحش» بضاعة بستة ... جنيها والعدة التي معي كلها تسعة عشر جنيها إلا قروش ... أين لي بالباقي؟ ومن ذا الذي سيستطيع إقناع المعلم «الجحش» بأن الحكومة هي التي بعثرت رسماله على الرصيف ... سلبه في وجه أقفاسه؟ لابد أن أختفي عن أنظاره بهذي فلا أراه أو يراني إلا وفي جيبي حسابه بالتمام! أما متى يتوفر لي ... هذا المبلغ الكبير فأمر يعلمه الله وحده.

القصد يابوي، حودت على محل كان قائما على الكورنيش في مصر العتيقة فيه بار وشرب خمر وأكل. قلت لنفسي: ضرب الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة، وتوكلت على الله فدخلت هذا المحل، طلبت دجاجة وطبق من الأرز وآخر من الخضار مع ... السماء بالحمصية. أيقظت بطني ورحت أعطيها وأدلق فيها ... ذلك حتى قمت في النهاية مدووشا أمشي كالطاووس مع أن ... كان قد جفف عيني ودماغي، والضرب فصص عظامي ... نفسها دفعت ثلاثة جنيهات في صمت وهرعت إلى مقهى المعلم ... دروس» فطلبت قهوة وجلست أدخن في ركن الظلام إلا وكانت ... علم «الجحش» يهبط علي كأنما سقط من السماء، إذ كنت سارحا ... ملكوت الله متمددا على كرسيين وميلت لأرمي عقب السيجارة فوجدته قد جلس بجواري! منذ متى جلس والله ما أدري! لكنني ... نظرت في عينيه خلل الظلام المترقق لقيني احساسه بالفرح

لانه استطاع ان يقبض على اخيرا صرت مجرما وهناك من يتعقبني للإيقاع بي. اعتدلت على كرسي واحد وقلت «أهلا وسهلا». قال فاشحا حنكه «ماجيتش تحاسب المعلم ليه؟ خير؟ انت سكران ولا ايه؟». قلت باحثا عن صوتي «سكران نعم سكران من فعل الضرب والشتم والبهدلة». قال وقد ظهر من صوته أنه لن يصدقني في أي كلام أقوله «ليه كفى الله الشر حصل ايه؟». انتفضت واقفا ونزعت الجلباب كاشفا عن جسدي قائلا «شوف ياحج الحكومة كسرت عضامي يابوي بعثرت البضاعة يابوي سبت الناس تهجم عليها وتنقيها بالتسعيرة الجبرية». أخذ يتفكر ثم رام وقال «يعني ضاع بتاع الناس؟!» قلت «الله وكيل!! الذنب ليس ذنبي». مد يديه وتحسس جيوب صديري أخرج محفظتي وفتحها أخرج كل ما في جيوبها، عده فاذا به ثلاث خمسات وبضع قروش وضعها في جيبه وصار يلوح لي بإصبعه في تهديد شرس «اعمل حسابك!! رجلك ماتخطيش ناحية السوق بحاله!! المعلم ممكن يضربك بالرصاص ويتاوي جثتك ولا من شاف ولا من دري!»، ثم انصرف.

اروح فين ياولدي؟ اعمل كيف؟! جاءت صورة أمي وهي تودعني عند السفر قائلة «إلهي ربنا يحبب فيك المخاليق ورفاق الطريق»، فاقشعر جسمي، وهتف صوت في دماغي لسوف يجيها الحلال. وبالفعل، حمل المعلم «شدويلي» همي أخذني إلى مقهى كبير في مصر القديمة عليه وارد يحتاج لأكثر من صنايعي قال

المعلم «شدويلي» لصاحب المقهى الكبير «هذا الولد يصلح صبيا نظيفا وهو من بلدياتي وعلى ضمانتي». قال صاحب المقهى الكبير في هدوء «وماله رزقه ورزقنا على الله. خش ياولد وربنا شطارتك». وكانت رأسه غليظة منتفخة كرأس ثعبان ابتلع بطيخة، الا أن الطيبة كانت بادية على ملامح وجهه. شمرت ذراعي وفردت المريلة التي أعارها المعلم «شدويلي». لبستها فبدوت كأنني أقوم بتسميع الحركات التي يفعلها المعلم «شدويلي» في شغله والتي يظن من يراها أنه أمام صنايعي قراري نشيط صنعتي، لكن المعلم ابتسم ابتسامة لم أرتح لها وقال «وماله برضه كل شيء بيجي بالتمرين إن شاء الله». يوم بعد يوم تعلمت الصنعة، عرفت أن كل شيء بالفعل صنعة لها أهل ورجال. نجحت كعامل نصبة أصنع في الساعة ألف كوب شاي وألف كنكة قهوة بدون عناء. لكن القروش التي يدفعها لي صاحب المقهى آخر النهار لا تساوي العرق الذي ينشال مني طول النهار، أعيش على البقشيش وأجمد اليومية في الحوالة البريدية كل شهر لأمي. شخط في المعلم مرة فشخطت فيه بالمثل فشتمني فخلعت المريلة رميت بها واتكلت على الله إلى اسطبل عنتر.

قال المعلم «شدويلي» وهو يغمرني بعدساية أفيون. «اسمع يا ابو العم! أنت ابن حلال مصفي وهذا هو بركة دعاء الوالدين وبركة أعمامك الفقهاء الطيبين». قلت «صدقت والله ولكن بحتي لما ترى غير موات!» قال وهو ينقر بأصابعه الطويلة الخشنة

فوق سعدى «الدكان المجاور لمحلاتي على الكورنيش يريد صاحبه تأجيره وهو دكان يصعب أن يسمع به شخص غريب مارأيك لو أجرناه لك وفتحته قعدة شاي مختصره على قدها؟» قلت «بوفيه تقصد؟» قال: «عليك نور!! إيه رأيك؟» قلت «يادار مادخلك شر» قال «معك كثير؟» قلت «سبع جنيهات وستين قرشا سأرسل منها حوالة بست وأصرف على الحوالة من الستين قرشا» قال «لا حوالة ولا غيره هات مامعك!! حوله على أباه» فدفعت إليه بالمبلغ

الحق لله تعب الرجل معى آخر تعب، استأجر لى الدكان واتفق مع البناء الذى أقام النصبة بالأسمنت والقيشانى، وخطفت أرجلنا إلى السوق فاشترينا ثلاث أربع دست من الأكواب والبراريص والعلايات والكنك، وأعارنى ثلاث ترابيزات وعشر كراسى على سبيل الايجار بمائة وعشرين قرشا فى اليوم هب نلبى فتحنا من صبيحة ربنا حتى ما بعد منتصف الليل لا أفرغ من صنع الطلبات وتوزيعها لكننى كنت أتعب يابوى، يجىء الليل على فأنكفىء من الاعياء مستندا على النصبة لساعات طويلة.

الا وجاءنى ذات ليلة أربع رجال أفندية آخر وجاهة تحلقوا ترابيزة رخامية وقالوا: «عندك كوتشينه ياحاج؟» قلت «عندى» قالوا «هاتها» وكانت جديدة فقالوا فى نفس واحد «دل» ومال أحدهم على قائلا فى بساطة «شوف ياعم الحاج حنلعب عشرتين ثلاثة – وغمز بعينيه غمزة ذات معنى – ولك ياعم على كل

دور عشرين قرشا أجر ترابيزة عندك مانع؟» قلت: «لا» فانبرى يخلط الورق فى حماس ويطلب المشاريب

احلوت اللعبة يابوى، ساعتان أو ثلاث فى أواخر الليل مقام شغل جمعية بحالها، حتى صرت يابوى من فضل الله وكرمه أرسل لأمى كل أسبوع حوالة وأدخر حوالة أهملت أمر القهوة و شئ وطال ابتعادى عن خصم النصبة د لابد أن أكون جالسا بجوار اللعب أراقب الأدوار وأقبضها هات واحد شاى يامعلم حسن، قم انت عدم المؤاخذة واعمل لنفسك شايا ثقيلا كيفما تهوى الشعب المصرى شعب مهود يابوى، كالبوصة الخيزران ملويها دائرة فى أصبعك متتحيل انه – أقصد انها – ملك يديك، فاذا ما غفل أصبعك برهة وحيرة اندفع الطرف وارتدت البوصة مستقيمة كأن شيئا لم يكن هكذا كان يقول عمى الضرير الأسه فى مدرستنا، وكلما دعكتنى الحياة فى مدينة القاهرة احسست أننى يجب أن أكون مثل البوصة الخيزران لكى أعيش فى هذه البلدة دون مشاكل ووجع دماغ وكراهية طب ماقولك يابوى أننى كنت أرسل هذه الكلمة كلمة «قم اعمل لنفسك» إلى رجال محترمين جدا والمفروض أن أقف أمامهم خاشعا مكسور الجناح كنت أقولها فى تهيب شديد أول الأمر، ثم على هيئة مزاح، ثم أطلقها بلهجة أمر غليظ قم إعمل لنفسك فيقوم سعادة البيه ويعمل لنفسه دون غضاضة على رأى عمك الضرير، أى والله يا أبو العم

تفرغت لقنص الزبائن المنهالة على كل مساء من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا. لم يعد يعنيني راحة أي زبون، بل أصبحت أجد لذة في إهانتهم تزداد نشوتي منها كلما رأيتهم جميعا يقابلون إهانتي لهم كأنها أمر طبيعي! أصبحت أعمل على طرد حمائرهم ابتداء من بعد صلاة العشاء

غير أن الضربة ليست تقع في المعطوبة كما يقول المثل بل تقع دائما في السليمة. وهي ضربة تصيبني دائما كلما جرت النعمة بين يدي. دخل الضابط علينا فجأة وخلفه رجاله، كان أفنديا وهم كذلك لكنني عرفت الضابط من دخلته ذات النفخة الكذابة ومن التفافه حولي في ثقة ثم إحاطة رجاله بنا. ليلتها حملت الترابيزة فوق رأسي والكوتشينة في يدي ونقود القمار في جيبي. نقلتنا عربة الشرطة الزرقاء إلى قسم مصر القديمة حيث أشبعونا ضربا وتلطيشا مما يجب قبله عدم المؤاخذة، حرروا لنا محضرا، وبعد أربعة أيام أفرجت النيابة عنا بكفالة عشرة جنيهات لكل واحد. في اليوم الذي خرجنا فيه اتجهت من فوري إلى المحل ففتحته وكنسته ورششته بالماء وبخرته ثم أشعلت النار تحت الرمانة وجعلت أغسل الأكواب أقصد الكريم مستفتحا بواحد شاي لي. مع حلول المساء رزقني الله بالعشاء في الموعد اليومي المعتاد جاء الأصحاب الأربع لا يبدو على وجوههم أثر لما حدث بل لا يبدو عليهم أنهم يعرفونني أصلا، كأننا لم نكن سويا في الحجز منذ

ساعات قليلة. سلام عليكم ياحاج، قلت عليكم السلام. أردت أن أقابل كل سخرية منهم بأن أرد عليهم مثلهم، قلت بمجرد جلوسهم كأنهم أغراب عني «تشربوا أيه؟» قالوا: كوتشينة طبعا. استأنفنا اللعب من جديد. ما كادت النعمة تسري بين أصابعي حتى كبست علينا الشرطة مرة أخرى، في هذه المرة شمعوا الدكان بالشمع الأحمر. أما نحن فقد دفعنا كل ما كان معنا لأمناء الشرطة ومع ذلك لم ننج من ركوب الصيبية التي يفررون فوقها من يتحرون عنه معرفة إن كان من أرباب السوابق أم لا، الحمد لله كشفت الصيبية أننا جميعا بلا سوابق وأفرجت النيابة عنا على ذمة أن تطلبنا المحكمة بعد حين

قلبي شال من المنطقة كلها ياحاج، أصبحت لا أطيقها واسودت الدنيا في وجهي فقلت في نفسي ليس لك عيش في هذه المنطقة يا أبا علي! إن الشمع الأحمر الذي ربط باب دكاني في الأرض هو الإنذار الإلهي الذي يقول لي ابحث لك عن باب آخر في جهة أخرى

فوالله ما كذبت خبرا. كان المعلم شندويلي يفتح مقهاه عقب صلاة الفجر مباشرة ويبدأ في رص الكراسي ورش الأرض. فوجئ بي آتيا من مسكني أحمل جعبة الورق التي فيها خلقاتي كلها، وكانت منتفخة. صباح الخير يامعلم شندويلي. صباح النور ياحسن أمسافر ياترى؟ قلت «حاجة زي كده» قال «كيف؟» قلت

«سأقلب عيشي في عتبة أخرى في منطقة أخرى غير هذه» قال «من ورائي يا أبو العم؟» قلت «يمين الله ما أعرف حتى هذه اللحظة أين ترسو بي المركب ولا في أي مكان توجد لقمة عيشي» قال والخواتم الفضية تتماوج في كفيه «عليك بحي الزيتون لا تذهب شمالا أو يمينا» قلت «خير إن شاء الله ما الذي في حي الزيتون يامعلم شندويلي؟» قال «تركب أتوبيس نمرة كذا يوصلك إلى محطة باب الحديد تسأل عن قطار كوبري الليمون يدلونك على محطته تقطع تذكرة من الشباك تركب القطار توصي الكمساري أن ينزلك في محطة الزيتون، تنزل في المحطة تنزل الرصيف عائدا إلى الوراء حتى المزلقان تجد قهوة المعلم ظريف، أسأل فيها عن المعلم أبو القاسم شعيب تجد ألف من يوصلك إليه، إنه مقاول قد الدنيا وكل معارفك يتوجهون إليه مباشرة وإن شاء الله سيكتب لك الله لقمة عيش عنده، فعنده أنواع شغل من الفواعلية إلى كل ما تريد وما تستحيل، يعني لابد أن يجد لك شغلا على قدك بالضبط» قلت «ابن أصل صحيح والله يامعلم شندويلي من الآن أي خطاب يجيء باسمي احفظه عندك حتى أعود» قال مشوحا «ولماذا أحفظه؟ سأضعه في مظروف جديد وأرسله إليك طرف المعلم أبو القاسم شعيب» قلت «على بركة الله» عانقته وبكيت فبكى هو الآخر ومد يده في جيبه فأسرعت ممسكا بها قائلا «مستورة والحمد لله» ثم تركته ومضيت

العدد ثلاثة

الأولة-عرسان وعرايس

ما أن وقع بصري على باب الحديد حتى هاج صدري من سمعة أركان ما أدري إلا وأنا أقطع تذكرة إلى الصعيد فسبحان الله إنها إرادته

القطار يدب ساعات طويلة يابوي ومحي يضرب بقلبي ما الذي سأعمله في الصعيد؟ ما الذي أقوله لأمي؟ أفي إجازة أنا أم أن هذه هي الأوبة الأخيرة؟ أستفرح أمي بذلك أم ستقع من طولها؟ ...طني الهواء فمت من التعب، وقد هيأ الله لي من يصحبني عند كل محطة ليسهني.

يابو .. و .. و.. ي .. على الفرحة التي التقاني بها الأهل من أول الحارة حتى داري، لم أفرغ من السلامات والأحضان ... حتى صنعت مهرجانا ورائي أول شيء مفرح التقيته ... قد صار لنا دار مسقوفة كلها، ذات أبواب وشبابيك جديدة ... سست بكل الأمان، وقلت في نفسي، رعاك الله يا أم فهذه هي ... التي أرسلها لك بالحوالة البريدية قد نفعت الآن وصار

لنا بيت بحق وحقيق استطيع الجلوس فيه واستقبال الرجال بلا حرج

ها هي دي العائلة بربطة المعلم تطل خارجة من باب الدار، أمي تجري نحوي مهرولة ومن خلفها «سلمى» و«ممدوحة» و«سعدية» و«هندية» التي أصبحت عروسا الرابعة في زمن غيبتي جاءت هي الأخرى بعزم المشوار نحوي لترتمي في حضني، خلفهن أخي «محمود» الذي كان رضيعا خرج يحبو على قدميه يحاول أن يصب جيبه يبكي مرعوبا من هذا الانقلاب المفاجئ، فكدت والله أتركهم جميعا وأجري اليه لولا أنني لم أتمكن من نقل خطواتي، حيث تعلقت أمي بحضني وهات يابوس وضم وبكاء، في حين تشعلقت «سلمى» برقبتي و«ممدوحة» بكتفي أما «سعدية» فوقفت متدللة في انتظار أن أذهب اليها واحضنها بالسلام والتقبيل وأما «هندية» فتعلقت بذيل جلبابي، وصوت بكاء «محمود» يتصاعد ويطغى على صخبنا ولولاه لبقينا في الشارع هكذا وقتا طويلا .

اللقاء بعد الغيبة حلو يا خال، لا مثيل لحلاوته، ولو ثوقل هذا اللقاء في كفة بمليون جنيه أكسبها من الغربة في كفة مقابلة لانخترت اللقاء اذ أنني واللقاء في كفة واحدة. صار الرجال يأتون للسلام علي وصرت أحس بأنني محترم في وسطهم فشعرت بحلاوة الصعيد وكرهت القاهرة كره العمى، وقال هاتف لعله من طرف الملاك المنوط بتسجيل الحسنات على أحد كتفي «أنا هنا رجل بحق وحقيق رب أسرة وصاحب بيت يؤمه الزوار أما في

الغربة فأنا ريشة شريدة في مهب الريح» قمت هذا الصوت في دماغي فحصته وقلت لأنظرن في هذا الأمر

لكنني تظلرت ذات لحظة بعد خفوت دوشة مقدمي، وكانت صينية الطعام الكبيرة مفروشة على الطبلية ونحن نتحلقها في حوش الدار ومن حولنا بط وأوز ودجاج ومعيز وحمير كثير، فرأيت أختي «سلمى» و«ممدوحة» و«سعدية» و«هندية» قد صرن حريم بمعنى الكلمة أي قد صرن في حاجة إلى ظل رجل يحميهن من طمع ذوي النفوس الوسخة ارتعد قلبي والله ياخال وانتفضت اللقمة في يدي متساقطة الشوربة على ثوبي، لمجرد تخيلي لرجل من المطاريد معدوم التربية يقتحم دارنا هذه لخلوها من الرجل ويستبيح كل هذه الكنوز الغالية أيحيلك قلب يا حسن أن تترك هذه الجواهر المخلطة تنوء بها أمك وحدها؟؟ «سلمى» و«ممدوحة» و«سعدية» و«هندية» يهون عليك فتتركهن شهورا أخرى وربما سنوات؟ كيف ياولد فكرت في هذا من الأول؟؟ الا قاتل الله الفقر استحليت البقاء لمصلحة رجوليتي قبل مصلحتهن، استرحت لهذا فأكلت بنهم حتى شبعت واتكأت ممكنا على مسند صلب وجعلت أدخن السيجارة باستمتاع شديد رامي متربعة جواري، أختي «سلمى» تسوي الشاي على ركية نار منبعثة من الكانون، جاءت «سعدية» بصينية الشاي عليها البراص والأكواب الرنك فوضعتها أمامي فأخذت أمي تصب لي الشاي الأحمر في الكوبة قائلة «بالهنا والشفا ياخويه»، جعلت أرشف

ميلت أمي على أذني وهمست: «أرأيت نورك كيف ملأ الدار؟» قلت مداريا دمعي الوشيك: «أنت صاحبة كل فضل يا أم». قالت: «لماذا لم تحدثني عن أحوالك ياولدي؟». قلت: «بخير والله يا أم». الولية لم تصدقني في هذه الكلمة! لم تصدق أن حالي بخير، قالت وهي تربت على كتفي: «أعرف أنك تتعب ياقلب أمك». قلت محاولا اعتقال دموعي: «كله يهون من أجلك أنت وأختي يا أم! فمن لكم غير الله وغيري؟ من أجلكم أقطع من لحمي وأرمي في حلة الطبيخ». ربتت على كتفي مرة أخرى ومرات ثم بدأت تتثاءب وانخرطت ترقيني وتملس على جسدي بورقة: «رقيتك من عين الحسود فيها عود ومن عين المرة تنقلع بشرشرة ومن عين الراجل تنقلع بمناجل ومن عين كل اللي شافوك ومصروك وماصلوش على الحبيب النبي». وجاءت أختي «سلمى» بمقد فيه البخور يتصاعد دخانه ذو الرائحة الزكية وصارت تلف يديها بالمقد حول رأسي حتى صرت أنا الآخر أتثاءب ووضعت أمي الورقة التي كانت تملس بها على جسدي في نار المقد وتركتها تحترق على مهل ثم قالت لي: «شف ياولدي، إن كان القرش يجيئك في الغربة من حلال فالغربة محتملة إلى حين أما إن كان القرش فيها من ...» قاطعتها مرتشعا: «أقول لك الحق يالم؟ إن الحلال في الغربة غير مباح! يا أم لا تندهشي! إن البلد التي كنت فيها يسمونها القاهرة أي أنها تقهر الناس من سكانها وكل من يلجئون إليها في طلب! تقهرهم على فعل الحرام عيني عينك وفي

كل خطوة! ومن لم يقدر على فعل الحرام تمرغ أنفه في الطين وتفضح حرمته! صدقيني يالم أن الحرام الذي كنت تدفعيني إليه هنا أخف بكثير من الحرام الذي يغرق أهل ذلك البلد! إن حرامنا بسيط لن يحاسبنا الله عليه يالم! سوف يغفره لنا سبحانه على أساس أنه لعب عيال! نحن هنا نفعل الحرام الصغير فتقشعر أبداننا خوفا من الله، من عذاب يوم القيامة أما أهل القاهرة فإنهم يفعلون الحرام الكبير دون أن يشعروا أنهم يرتكبون الحرام! لو قلت لك أنهم يتفاخرون ويتفشخرون بفعل الحرام تقولين كذابا!»

أخذت أمي تلك الطرحة وتعيد لفها حول رأسها عديد من المرات فتخيلت كأنها ترمم دفاعها خوف الانهيار. قالت كأنها تختم الصلاة: «على كل حال جئت في وقتك! أنا هنا محتاجة لك سنظر دخلتك بديمها الله علينا». وراحت تصب لي الشاي الدور الثاني. فيما أرشف الشاي كانت هي شاردة سارحة في الملكوت ولكن ظهر على وجهها أنها تدخر لي خبرا أشعر أنه شغلها عن أنه هو الذي جعل مسألة سفري أو بقائي في المرتبة الثانية من اهتمامها. بعد برهة ميلت رأسها صائحة: «اذهبي ياسلمى ونيمي البط والفراريج، وأنت ياسعدونة قومي تربي للمعيز واحبسيها وياسعدية اذهبي فسيمي هندية ومحمودة». لما اطمأنت إلى أننا صرنا وحدنا ميلت علي قائلة في غبطة: «صابر ولد صفوان أبو

عدس تعرفه؟». قلت: «طبعا» قالت في نبرة مرعوشة بالبهجة. «ما قولك فيه؟» قلت: «لي عشر سنوات لم أراه ياأم» قالت: «إنه معك في مصر. هذه البلد التي كنت تحكي عنها الآن. يسرح في الشوارع يبيع الفانلات والسراويل والملايات ومعه قرش ومسوط وكل بضع سنوات يجيء ليشتري قراريط الأرض». قلت «ماخبره ياأم» قالت «يدور على أختك سلمى! يرسل نسوان دارهم ليخطبوها مني! سيعيشها في مصر ويستتها! سيشتري لها قرطا وكردانا ومشغلة وخلخالا ويمتعها في العز». سرح خيالي برهة في اللاشيء وما لبث حتى ارتعش قلبي من الفرح بإحال أو من الخوف لا أعرف، لكني قلت «ما رأيك أنت ياأم؟» قالت «الذي أراه أن الولد شاري! بعث لنا ثلاث مرات وجاء بنفسه مرة! وطلب مني أن أبعث لك جوابا لتحضر أو أعطيه عنوانك في مصر ليقابلك فقلت ألا يراك في بلاد الغربة وكنت سأكتب لك جوابا بالمجيء ولكن الله أرسلك! إنه سبحانه يعرف بخت البنية ولسوف يعجل بسترها». قلت «على بركة الله ياأم على بركة الله! إنه طول عمره ولد طيب ابن حلال وجدع» قالت أمي كأنها تعلن موافقتها النهائية «ربما يكتبها من نصيبه!».

المسألة جاءت سهلة ياناس ومثل العسل، لم تستغرق والله شهرا قرأنا فيه الفاتحة وعقدنا القران وسافرت أختي «سلمى» إلى مصر في زيطة وزمبليطة كبيرة، وكنت معها وأنا وأمي

وأخواتي حيث اطمأنت نفوسنا وتأكدت أن لابنتنا دارا وعيشا وسترا، وعدنا إلى الصعيد بعد يومين اثنين

صرفنا القرشين ونفدنا كما خلقتني يارب ترزقني. سبحان الله نبوي، ففي نفس الشهر جاءنا من يخطب «مدبوحة». هو الآخر ولد يعيش في مصر منذ بضع سنوات ويشتغل نفس الشغلة ولكن في وكالة البلح، حيث يجلس بفرشة يد صغيرة يصنع منها دكانا متنقلا يتسع بكثرة تصريفه في البيع اسمه «نصر الأقرع» وأعرفه ولدا أجدع من سابقه، فقلت «على بركة الله». عقدنا القران في انتظار أن ينتهي العريس من بناء شقة يتملكها على أرض يضع يده عليها في منطقة مهجورة خلف صحراء المماليك من جبل المقطم. في شهر واحد لعلعت في دارنا الزغاريد مرتين وأضيئت شموع الفرح مرتين وجلس على كرسي الكوشة عروسان مزوقتان إحداهما سافرت والأخرى على وشك السفر «عقبال سعدية وهمومة وأمسح لهن جميعا نماء شرفهن وخلاصهن وعائط أولادهن! اللهم اسعدهن! اللهم استر عرضهن! وبلغهن كل أمانيهن! اللهم ارض عنك ياحسن يا ولد بطني!»

هكذا راحت أمي تبتهل بصوت مخيف راعش، رافعة وجهها نحو السماء باسطة يديها. أخذت والله أحبس دموعي حبسا

الثانية-بصرة بالبنت

قلت لامى فى لحظة صفاء: «يظهر أنه مكتوب لنا لقمة عيش فى مصر يا أم! ولابد منها!» قالت: «يفعل الله بنا مايشاء فنحن أولاده وهو مسئول عنا! وليس هو سبحانه ماندى يفرط فى المسئولية حاشا لله ياولدى! لاتكفر!» رحت أتفكر فى أمر العودة إلى القاهرة. مخففا وقع الأمر على نفسى بأن الله قد ساعدنى من حيث لا أدرى فخلصنى من نصف المسئولية ولا بأس من الغربة سنين أخرى. فدا بأمى تقول «من غد تتوكل على الله ياولدى فتبحث لنا عن رزق نعتمد على الله وعليه مدة سفرك إلى أن يكرمك الله وتبعث لنا بالحوالة». قلت: «فعلا يا أم صدقت! غدا يحلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام!».

الليل بطوله وأنا مفنجل العينين يا حال، حتى يضرب قلب، هاتف حوانى يقول لى قم الآن بمعمض واسرح فى هذه الجلسة ... خروج المصلين من صلاة الفجر وأنت ونصيبك فالله لن يردك ... وهاتف لعله من السماء يرعى قائلا كيف بعد أن صرت ... لا محترما يوقرك الناس تعمل أعمالا كهذه؟! افرض أن الطوبة

جاءت فى المطوية وضبطوك متلبسا فماذا تفعل أمام فضيحة بجلاجل؟! وهاتف ثالث يقول لى تعقل ياحسن فأنت غائب عن الصعيد منذ مدة كبيرة وقد صرت كالغريب أعمى ولو كنت بصيرا. الله أكبر نطق بها صوت المؤذن فدوى من خلفه صوت أمي زاعقا يرج الأرض من شدة ما فيه من فرح واستعطاف «الله أعظم والعزة لله. لا إله إلا الله محمد رسول الله». متأكد لي والله يابوي أن الله لابد قد تأثر من ضرعة أمي هذه بصوتها هذا الذى يفتت الحجر. تقول كافر لو قلت لك أننى قد رأيت الذهول يشق فى دماغى فجأة بشرخ سرعان ما اتسع وبرزت خلاله دموع تتساقط من عين مجهولة فى العلو على حد يشبه سحب السماء الصافية!.

سحبت جلبابى الكشمير فارتديته ومضيت نحو الباب. تقلبت أمي، قالت «رايح فين ياحسن؟» قلت «أصلي الفجر ياأم» قالت كأنها قد أحست أن صلاة الفجر هذه مجرد اسم لمشوار آخر أنوى القيام به «الله معك ياولدى! ادع لنا بالستر!». قلت «يحصل بإذن الله». وخرجت، فقامت هى وأغلقت الباب من ورائي بالترباس.

شققت طريقى إلى المسجد الذى لم أكن دخلته فى حياتى من قبل رغم أنه على مبعدة ذراعين من دارنا. خلعت صرمتى القديمة ودخلت متوضئا واندسست بين صفوف المصلين فجاءتنى راحة كبيرة، هبط الغليان فى صدرى، تيقنت من أمي قد وكلت الله حقا

فى التصرف فى أمرى. الله وكيل يابوى ما فى ذلك شك أبدا فوانحن مختتم الصلاة لاحظت أن رجلا محترما يطيل النظر إلى من تحت لتحت يتأملنى حتى أوشكت على الخوف منه، فلما سبق من يجاورنى إلى الانصراف تزحزح هو جوارى حتى حاذانى ومد لى راحة يده قائلا: حرما، فلامستها براحتى قائلا: جمعا إن شاء الله، وقبلت راحة يدى. قال الرجل: «ألست حسن ولد أبو صب؟» قلت: «صدقت». قال: «فكيف لا تعرفني ياولد؟». قلت: «العتب على النظر». قال: «أنا الحاج دعدور صاحب الجناين». صحت قائلا: «يه يه يه أبى كان يحفر ب ماكينة المياه». قال: «والجناين كلها. رحمه الله كان شديد الحب بنفسه». قلت: «تخلف لك طيلة العمر. لقد كنت أيامها طفلا صغيرا فاعذرنى». خرجنا معا من المسجد وقد بدأت أنتشي لظهور شدة الشبه بيني وبين أبى رحمه الله. كلمة منى وكلمة منه، أنت فين وأخبار الشغل إيه، وحمد الله على السلامة ومبروك ما عملتوا. لم نكد نصل إلى نهاية الشارع حتى كنا قد اتفقنا على أن أحفر له الجناين لموسم العنب فى مقابل ثلاث ثلاليس من الذرة العويجى، خلاف كسوة وأكل وشرب لمدة ثلاثة أشهر. بالصلاة على النبى طلعنا من المسجد على الجناين متسلمتها وتممت عليها وعلى المكان الذى سأبيت فيه وفهمنى أن من بين عملى إلى جانب الحفارة أن أجلس أمام الجنينة بعرش كبير يضم أقفاص مملوءة بالعنب الفرط المطلوب بيعه وأكله فورا قبل فساده.

الدكاكين قديمة، لكن الفاتني رجعت غيبها حتى باتت الدكاكين كأنها في وسط البلد. قصادها مباشرة دار صغيرة محدقة فيها فتاة جميلة تقول للقمر قم لأجلس مطرحك، ويقول لي قم فلا تجلس أبدا. ذهبت بعقلي يا حاج، تقول سحرتني؟ سرحتني؟ لخبطت عزلي. أنستني التجارة وكل شيء. الملعونة بنت الملعون تقف أمامي تتركني أبصبص لها فاغرا فمي في الأفاعيل؟ ولربما ينتهي النهار إلى أن المغير والدواب الفطسة قد حومت على أقفاص العنب ونزلت فيه أكلا على راحتها فيما أنا مستمر مسمر في مواجهة الفتاة اللعوب ذات الوجه الوردي والبدن المتلفلظ كالبطيخ تحت ثوبها الواسع. كانت تتعمد برحيتي وانتعب بمجيء إذ هي تكثر من الرواح والمجيء على الدوام. متقصع تتلوى تشد كل العروق في مفاصلي، فأروح أنادي على العنب واصفا فيه كل الصفات الحميدة أبثه نواعجي وأشواقي أعتب عليه تعذيبه لي وتقله علي وتأريقي في أنصاص الليالي.

المضروبة لم تهدأ. فوجئت بها ذات عصرية تدخل على الحاج «دعدور» حاملة قفة كبيرة. ظننت والله أنها دخلت تدس في حقي لديه وتشكوني، فتسللت وراءها بصنعة لطافة وتلكأت بجوار الحاج دعدور. فإذا بالبنت تطلب من الحاج دعدور أن يبيعها خمسين رطلا من العنب على أن تدخل هي وتنقيه. قال لها الحاج «دعدور» وهو يضع النقود التي أخذها في محفظته: «ادخلي فانتقي كيف تشائين ولكن هل تجيدين قطف العنب؟ وإلا انفرط

منك». قالت البنت: «ابعث معي بهذا يقطع لي»، وأشارت إلي. فنص والله قلبي من الفرح ووقفت أنتظر، فصاح الحاج دعدور: «ادخل معها يا حسن وخذ معك المقص الحامي». قلت في أعتابه: «حاضر يا حاج»، وأشرت إلى الفتاة أن تتبعني فظللت أمشي داخل الجناين أكثر من ثلاثة كيلو مترات، اختفى الحاج دعدور وصرنا وحدنا لا عين ترقبنا سوى عين الله. توقفت الفتاة عند عنقود مثقل بالطيب الناضج وقالت: «اقطف لي من هنا.. واقطف لي من هنا». فأشرعت المقص ورحت أنتقي من التكعيبة أطايب العناقيد فأقطفها بحكمة وأرصها في القفة وهي واقفة ترقبني وتكتم ابتسامة شقية بين شفتيها. صدقني يا حاج أنني لم أعرف حتى الآن سر هذه الخيبة التي حطت علي! لقد كنت أتشال وأتحط في سبيل أن تحن علي بكلمة أو تنفرد بي لحظة في مكان؟ فما بال ود حالك يقف هكذا كاللوح الطرطوان بعد أن جاءته الفرصة وصار معها في خلوة بعيدة؟ كل ما أدريه أن سهم الله قد أصابني بشلل حركي وأعجز لساني وحول عيني فاندمجت في قطف العنب ورصه بحماس وجدية، فلما امتلأت القفة أمسكت بطرفها وشيلتها. فما استوت القفة على دماغها حتى نظرت لي نظرة فيها الهزء كله والسم كله، فانخفض بصري إلى الأرض، فإذا هي بفمها، تلك الكلمة البغيضة التي لم أكن أتوقع أن تنطقها: «.. أمك»، ثم دفعتني بيدها دفعة واحدة تهاويت منها متطوحا أتساند على الهواء. لحقت بها جريا وأنا أصيح: «الله.. الله.. طب حقك علي

تعالى. تعالى بس»، لكنها لم تلتفت إلى ومضت تتبختر تحت القفة الثقيلة ومضيت أجرجر أذيال خيبتي ولو كان معي مسدس في تلك اللحظة لأطلقت كل رصاصه على نفسي من تلك اللحظة انزرعت هذه البت في قلبي ولم تفارقه ليلا أو نهارا كان بيني وبينها ثأرا لابد من تصفيته!.

انتهى موسم العنب يانوى، وأوشكت التلاليس على الانتهاء هي الأخرى. هم يضحك وهم يبكي! تصور أنني وقد صرت عاجزا عن شراء ورقة دخان لف أفكر في خطوبة هذه البت؟ يظهر أنني من لخمتي وصلت متأخرا. الأيام التي مرت لم تكن طويلة، لاتزيد عن جمعة، غبتها في مشوار أحصل من ورائه لقمة عيش، حيث قد لجأ إلى نفر من المطاريد في أن أساعدهم على بيع زريبة مسروقة قوامها جاموسة وبقرتان عشار. وفقنا الله بفضله وحصل العبد لله في تسريب البيعة إلى بلد بعيد بسعر مربح للطرفين ولي بطبيعة الحال، أخذت حقي من الطرفين ورجعت عامر الجيب والقلب تداخلني ثقة في أنني سأجرؤ على تخطي عتبة دار الصبية لأجلس في حوشهم طالبا القرب من أبيها، ومكسبي من السريقة المباعة ليس بالذي يمكنني من قراءة الفاتحة وابتياع هدية ثمينة للعروس والوعد بما لذ وطاب لكنه كان مجرد عتبة أتخطاها ولسوف أعود من أجل خاطر عيونها إلى مصر راغما صاغرا وعلى قلبي أحلى من العسل. لبست جلبابي الكشمير واللبدة الجديدة والمركوب الوردي اللون، وزودت علبة دخاني بكيف يزن

أوقية، وذهبت أخطر نحو دارها آملا في تلقفها وتبليغها أنني قادم بخصوصيتها فعليها أن تمهد لي الطريق إلى أبيها. لكنني في ذلك اليوم لم أصادفها في الشارع. تلكأت في كل مكان ظننتها تتواجد فيه. كدت والله أطرق الباب وأنادي عليها بصوت عال وبلا حياء صائحا «افتحي ياحنة - ذلك أن اسمها «حنة» - بل كدت والله أدفع الباب وأدخل كما في المواويل قائلا أنا قتيل المحبة.

تسلطت متوقفا جوار باب دارهم تحت شباكهم كأنني أنتظر رسولا منهم وكأنني في نفس الوقت أقف في شارع الله الذي يخول لكافة الخلق الوقوف فيه. لفقت أكثر من خمس سجائر دخنتها في عجلة وعصبية ونسيان. أذني قد غادرتني وتربعت صحن دارهم من الداخل لعلها تلتقط لي من بين الأصوات صوتها ثم يبلغني طوال وقوفي أي صوت، وعيني منتزعة من مرقدها تحت جبهتي وراحت تمتد في كل مساحة خالية تبحث عن طيفي فكأنما نظراتي أشعاعات كشاف ترنحه الرياح. فلما لم يعلق بها طيفها انطفأت خرباته حسيرة. وهكذا أغمضت عيني وأشعلت سيجارة وأخذ دماغي يسترد نفسه ليفكر بهدوء في الأمر. دهمني والله احساس مفاجيء بأن الشؤم قد خالفني اليوم معها! إذ أنني لم أكن أصدق أن تختفي فجأة هكذا يا خال، وهي التي كانت تروح وتجيء في الدقيقة الواحدة ستين روحة وجيئة وكانت ...هي موجودة في الشارع كله حتى وهي داخل دارها. جاءني احساس بأنها الآن لابد أن تكون في خلوة مع أحد، ففار دمي

فوراناً، واوشكت أجرى فى الخلاء بصوت أشج به رأس كل من يقابلنى. لم يسعفنى الا طفل صغير من أبناء جيرانهم رأيته يلعب بجوارى، لاطفته سرحت به، عرفت منه أن «محنة» انتقلت هى وأمها برفقة أبيها إلى بلدة «أولاد إلياس» المجاورة حيث ستختفى هناك طويلاً إلى أن يعود العمدة

سبحان الله يابوى. خطر فى بالى أن «محنة» هى إبنة «أبو سكين» الخفير الخصوصى والمرافق للعمدة أينما ذهب. والعمدة له زرع عريض فى النجع القريب منا، يحلو له أن ينقل محل اقامته إلى هناك ليكون ساهراً بحق على رجاله. لما تذكرت ذلك خفت لبرهة ثم حمدت الله أن نزل على سهم الله حين انفردت بها فى الجناين. ثم قلت: ما من بد، فلا بد أن أراها، ولآخذن معى واحداً من صحاب عمرى القديم أو بالأحرى من صحاب أبى ونقصد الكريم إلى دارهم.

فى الصباح بحثت عن أحد يذهب معى فلم أجد. فاغتظت أيما غيظ. فلأذهبن وحدى بنفسى من أجل نفسى. الست رجلاً يملأ العين؟ وقد كان.

امتطى العصى على الطريق وأنا أتنسم ريح «محنة» وعطرها كلما اقتربت من حدود «أولاد الياس» الى أن امتلأت خياشيمى برائحتها المعتادة. فتلفت حولى، فإذا بـ «أبو سكين» الخفير يخرج من غيط القطن المجاور لى، والعمدة يتحجل أمامه متقافزاً فوق

زرازيق منفوخاً يكاد الكبر يفرتكه، وكان الشر بادياً عليه حين أرسل نظرة سيئة إلى جوارى فنظرت فإذا بولد صغير قد سرق من حجره قطناً وها هو ذا يقف مشلولاً بسرقته يتلبسه الذعر. قبض عليه العمدة فأمسكه من كتفه وهزه بعنف ولعن أبوه الذين خلفوه، رمى به إلى «أبو سكين» الخفير. ضربه «أبو سكين» بالكف على وجهه ونزع ما معه من قطن ثم تركه. نظرت فى الولد فعرفته وعرفنى، إنه ولد غسان وعلى قد حاله ولكن يكفيه صيتاً أن «عبد الرحمن ملك الموت» عمه لزم

عم الولد اسمه «عبد الرحمن» على اسم سيدنا عبد الرحمن عزرائيل الذى يقبض الأرواح بأمر من الله جلت قدرته. ولأن عبد الرحمن كان قوياً كحصان فتى عملاقاً كمئذنة ضخماً كفيل شرساً كحوت فإنه كان إذا ضرب واحداً براحة يده فقل عليه يارحمن يارحيم فما بالك لو ضربه ضرباً حقيقياً؟ إذا نزل فى عركة على بحرق مخلوق مهما كان جعيصاً أن يقف قبالته. كان منظره يفض خصومه فى عرف. يكفى أن يعلن انحيازه - ولو بكلمة - لأى طرف، فعلى الطرف الآخر أن يجمع رجاله ويحصى خسائره ويعضها. «عبد الرحمن ملك الموت» كان جباراً مكاراً خبيثاً غبياً، يبيع نفسه سمعاً وعلى المكشوف، ياويلك لو حلفت معه اتفقاً ثم بينكما فالسن لن يجدك أمك ذات لحظة بكل بساطة، وإذا كانت الحكومة شاطرة تجيء بأى أثر لأى جريمة. وقد عجبت والله يابوى كيف نسى «أبو سكين» كل هذا فى هذه اللحظة؟! كيف

تهور وضرب الولد على وجهه بقسوة؟» قلت في عقل بالي. حقا إن الخادم المذعور من سطوة سيده يبقى سلاحا أعمى في يد سيده. عذرت الرجل لما رأيت سحابة خوف وندم تمر على وجهه، وقلت: ربما يستتر

ألهمني الله بكلمتين طيبتين هدأت بهما العمدة وانتهزت الفرصة فسلمت عليه وعلى الخفير فكرتهما بأعمامي الفقهاء ومضيت خلفهما حتى ماكينة مياه العمدة تحت مجموعة متكاتفة من أشجار التوت والجميز والصفصاف والكافور، حيث جيء بكرسي من حظيرة مجدولة جلس فوقه العمدة، وأقعى الخفير «أبو سكين» تحت قدمي العمدة على الأرض. رميت السلام وشرعت أنصرف فقال العمدة على سبيل المجاملة «اقعد اشرب الشاي يا أبو العم» قلت في امتنان «تشكر يا عمده كلك واجب» وقال «أبو سكين» في ود صادق «استريح يا أبو العم فالطريق طويل» قلت «أبو الله حق الله»، ثم أقعيت بجوار الخفير تحت قدمي العمدة منكسا رأسي في الأرض صامتا. صرت كالغريق في بحر ياحال، عقلي يقول لي تكلم ياعبيط هذه فرصتك جاءت لحد عندك ومن حسن حظك أن العمدة حاضر ومحضره قد يجيء خيرا لك لكن عقلي يرجع فيقول لي اعقل ياولد! فضك من شغل الحب والغرام ولعب العيال! أمعك شيء حتى تتشمل وتجيء لتخطب؟ وابنة أبو سكين الذي يستطيع بقربه من العمدة أن يضرك

ويمشيك على هواه؟ وعلى فرض أنه وافق فمن يضمن لك أن ظروفك ستعينك على تنفيذ ما تتفق عليه مع الرجل؟ أحمد الله أنك لم تتكلم ولم يصدر عنك شيء يفضح صغر عقلك!..

لحظتها ياحال، زحف أمام عيني المنكستين طيف على شكل ظل ملأ الدنيا برائحة اللقاح والبذور ورائحة الحنطة! في أسفل ظل كعبين مستديرين كالريال الفضة يتسحبان على الأرض ويختفيان مع ظل الطيف، إلا والعمدة يقول «كتر خيرك يا حبة» انتفضت كالطفل الصغير يسمع زمارة بائع الحلوى، ورميت بعيني في كل اتجاه لعلي أراها، لكنها كانت قد اختفت. خفت أن أكون فضحت نفسي فنكست رأسي من جديد فاصطدمت عيني بصينية الشاي النحاسية عليها كوبات الشاي.

يمين بالله ياحال ماكدت أضع كوبة الشاي على شفتي حتى سمعت دبيبا عفيا فوق الأرض أرجف الكوبة بين أصبعي، فرفعت رأسي متلبسني الذعر في الحال ياحال، إذ رأيت «عبد الرحمن ملك الموت» مقبلا يمسك نبوته الشهير يجر خلفه الولد الذي انضرب. الناس في بلدتنا إذا رأوا «عبد الرحمن ملك الموت» ماشيا بنبوته أيقنوا أن طلعته لن تخيب أبدا ولابد أن تسفر عن قتيلين أو ثلاثة في لمح البصر!.

دخل «عبد الرحمن ملك الموت» محوطا فكأن الدنيا قد غيمت قال في أريحية وبكل ود وطيبة «السلام عليكم ياعمدة»، ثم أقعى

بجوارنا ونظر لولد أخيه المضروب قائلا بابتسامة تشجيع «شوف ياولد من في هؤلاء ضربك» وأشار نحونا كيف تم كل ذلك في لمح البصر ياخال؟ يعلم الله كيف ولكنني فوجئت بنفر من ولد أخ «عبد الرحمن ملك الموت» قد صاروا واقفين بالنبابيت حولنا من كل جهة أشار الولد الصغير إلى «أبو سكين» الخفير وكانت البندقية الميرى لا تزال معلقة في كتفه فإذا بالنبابيت تنهال عليه كالمطر ياخال. فنفض الخفير وانطلق يجرى في الطريق والولدان يجرون خلفه يلاحقونه بالنبابيت كلما طالوه، إلى أن سبقهم بمسافة واستدار رافعا البندقية في وجوههم ثم أطلق عليهم الرصاص فوقع بثلاثتهم على الأرض قتلى غارقين في دمائهم.

«عبد الرحمن ملك الموت» رأى جثث ولد أخوته مجندلين على الطريق فانتفض واقفا يبغى اللحاق بالخفير، فإذا بالعمدة - وكان هو الآخر غبيا كبغل استرالي - يطبق في «عبد الرحمن ملك الموت» يطوقه بذراعيه بكل قوته فصارا يهران بعضهما كجبلين ملتحمين والخفير واقف منهما على مقربة لا يعرف ماذا يفعل. العمدة يصيح به «اقتله» اقتله هو الآخر ياعبيط» وكان «عبد الرحمن ملك الموت» قد بهدل العمدة وأوشك يمرمغ به الأرض، وكل منهما يدور بالآخر في دوامة، والخفير يصوب ماسورة البندقية في جنب «عبد الرحمن ملك الموت» ويضرب، فتخرج الرصاصات من

بطلع الآخر مخترقة صدره بالعرض. وهنا تركه العمدة فوقع، لكنه نهض في الحال، اندفع يجرى خلف الخفير وأسم يعرف من حسبه ولا أعرف كيف أسقط ببونه ثانية وأغلب الظن أن ببونه هو الذي طار اليه، وكان العمدة يجرى خلفه ليحول بينه وبين الخفير الذي تعثر فوقع في المصرف بحركة بهلوانية استدار «عبد الرحمن ملك الموت» مرتدا في قفزة واحدة حيث هوى ببونه على رأس العمدة بضربة واحدة سقط العمدة بعدها وشظايا من مخه تتناثر في الهواء كزغب الحمام. ثم أن «عبد الرحمن ملك الموت» قفز قفزة أخرى نحو المصرف مدعيا الخفير بضربة أخرى فوق رأسه، وكان بعدها يحاول تخليص البندقية من طين المصرف فسقط رأسها في الطين جثة هامدة، فوقها سقطت جثة «عبد الرحمن ملك الموت» هامدة. أما ببونه فكان من عزم الضربة وانفكاك اليد قد طار بعيدا ليصيب العمدة بضربة أخرى - عفوية هذه المرة - في صدره"

واه يابوى... واه، ست جثث مرمية على الطريق وفي مصرف الراكد تنتظر قدوم النيابة أربعة أيام بخمس ليال تضرب فيها الشمس حتى تعفنت بيمين الله ياخال ان الرائحة الكريهة ظلت كاتمة على أنفاسنا جميعا سنين طويلة، والخوف كله بات كنا عند ماكينة مياه العمدة وعفاريت القتلى تتسلق الأشجار والحظيرة تكيد للبشر ليل نهارا

اندفنت الجثث، والنيابة التى يهمها التصريح بدفن الجثث لم يعد يهمها الإمساك بأحد ممن يعتصمون بالجبل. كأنما الجبل يخرج عن حدود مسئوليتها، والواقع يابوى أنه يخرج عن حدود طاقتها وقوتها. وكان العمدة قد تكفل بتهريب زوج الخفير وابنته. أهل الموتى دفنوا موتاهم فى صمت كأن شيئا لم يكن، حتى لنا كأنهم سلموا أمرهم إلى الله بعد سقوط زعيمهم. سبحان الله ياخال، على خطورة هذا الحادث الكبير فإنه مر كما يمر أى حادث، نسيه الناس فى مجرد أيام قليلة!

ما أدرى إلا والعمدة الجديد ابن عمه يبعث خفيرا محترما فى طلبى. أتيت بقلبى من بين ساقى وقلت لابد أنه ينوى أن يستشهد بى ويجرجرنى فى محاكم ونيابات وأنا جسدى مفلس بها من حاله فلا يطيق منظرها. فكرت أنني لابد لى من الهرب يابوى! أيضيق بى الصعيد هو الآخر واضطر للهروب منه؟! لم يعد أمامى أنا الآخر سوى الجبل أعتصم به! ولكن هل أنا قد الجبل؟ طب وأمى وأخواتى يابوى من يرعاهم؟ وما لزوم الجبل؟ وما لزوم الهرب؟! الصراحة حلوة. الكلمة الطيبة أحسن! أحلى! كلمة حاضر ليس أريح منها. قل حاضر لمن يلح عليك وافعل ما يحلو لك بعدها فى السر أو فى العلن فلن يعترض أحد!!

تحققت فى عينى الخفير فلم أجد فيهما عكارة تشى بأن فى الأمر ضررا، فتوكلت على الله وذهبت معه. خير ياعمدة؟

أدهشني سلم على يدا بيد وقال: «اجلس»

فانثنيت على الأرض بجوار الكراسي الخالية..

قال: «ياحسن ياأبو ضب»

قلت: «نعم ياحضرة العمدة؟».

قال: «ما بقى فيك من لبن أمك؟!»

قلت: «كله معون الله ياعمدة»

قال: «أعرف والا مابعثت لك!»

صار قلبي كالمشبوك في خيط مطاط يلعب به صبي. لكنني استطعت أن أقول: «ملك يمينك ياعمدة»

قال: «بحثت في البلدة كلها عمن يكون قد بقى فى بدنه شيء من لبن أمه فلم أجد فبعثت لك. هات شايا ياخفير»

قلت لنفسي أهلا وسهلا، وتوقعت أن يكلفني بقتل أحد الأعداء، وبدأت أفكر في حيلة أخرج بها من المزنق. دخل الخفير بالشاي في الحال، للعمدة ولي..

قال العمدة وهو يشفط: «شف ياحسن. الحكاية وما فيها أ... عمن يحفر ماكينة المياه طول الموسم.. وكل من عرضت ... الأمر يخاف من عفاريت الجثث!!»

قلت باسما وقد هان الأمر على نفسي: «معهم حق ياعمدة ... اسمه مسكونة». فهقه العمدة ضاحكا وقال مشوحا فى

وجهي: «عفاريت إيه يارجل! أنت رجل ميت القلب وأبوك أحسن من حجر المكي. اسمع. لسوف أجعلك مبسوطًا على الآخر طوال الثلاثة أشهر مدة الموسم»

في هذه اللحظة يابوي، والله وكيل يابوي، طقت الفكرة في دماغي لا أعرف كيف! قلت له: «وقتني مداؤك ياعمده لكن لي طلب واحد فقط لو نفذته لي». فهز رأسه في قبول حسن وقال مشجعًا: «قل عليه». قلت: «أريد أن أتزوج حنة بنت أبو سكين»

انقلب وجهه في الحال يابوي، وظهر عليه الغضب الكبير حتى خلت أنه سيرفسني في وجهي بقدمه، إلا أنه تلطف في الحال قائلا: «زواج ماذا يابو العم؟! محن في جبار! هل هذا وقته بذمتك؟!». خجلت من نفسي والله ياخال، ومادت بي الأرض، فقلت: «معك حق ياعمده! كان يجب أن أميز». قال: «سأعطيك في الثلاثة الأشهر ثمانية تلاليس من الذرة!»

ثمانية تلاليس يابوي، كمية كبيرة والله يابو العم، أربع وستون كيلة تستر جوعنا وعرينا زمنا طويلا، فقلت: «موافق ياعمده! ورزقنا معي بإذن الله!». نادى على خفيره أن يرسل في أعقابي أربعة تلاليس من الذرة العويجي إلى دارنا مقدم أجر أحصل على باقيها قرب انتهاء الموسم.

الثالثة ـ عصف الريح

الليالي طويلة ياخال والشجر أشباح مقيمة تصاعف من عمق السواد لكحل، وقلبي واقف بين جنبي ياخال. فلا أرى إلا شبح «حنة»، محفوفا بعفريت عبد الرحمن ملك الموت الذي يتمها في ضربة متهورة غشيمة، أهو الشؤم أم قلة البخت؟ أم أنه موعظة من الله يسوقها لي كي أتعظ وأصرف نظري عن «حنة»؟! وهل الأمر بيدي يابوي؟! لو كان غيري في مكاني لضرب هذه البنت بالصرمة القديمة ورفض الزواج منها، لظن أنها سهلة المنال ترمي نفسها تحت أقدام من يرعاها ولبس بالضرورة أن ترعبه!! عقلي قول لي هذا الكلام دائما، وأزايد عليه مصدقا له، مع ذلك ما أن حضر «حنة» على بالي محياه حتى ينتفض قلبي كعصفور معلق في خيط من أنشوطة. تقول عني كاذبا مجنونا لو قلت لك أني ذهبت إلى الحظيرة التي كانت تعيش فيها «حنة» قبل الحادث فتنسمت رائحتها قوية نفاذة مربعة ياخال. قل عني ما يحلو لك لكني لم يكن يهمني في نوم إلا فوق مصطبة تخيلت أنها كانت تبيت فوقها!!

انتهى الموسم على خير وبركة، ورزقنى الله محمثة جنيهات بعت بها سوافط من زرع العمدة، وعمرت الدار بحزين يكفيها شهورا، وعمر جيبى بعدد يكفينى للسفر

رات أمى أن تعد لى لقمة طرية آكلها فى الطريق أو بعد وصولى، ما كان لها لزوم ولكن هل أقدر أن أقول هذا لامى؟ «الأمس أجلت سفرى حتى تغسل لى ثيابى، واليوم تؤجله حتى تصنع لى لقمة وغدا يعلم الله أى سبب جديد يطرأ عليها فتؤجل السفر من أجله؟!

قمت أمشى فى البلدة قليلا أملأ منها خواطرى قبل أن أودعها كنا فى الضحى والجو كئيب ملىء بالرياح المتربة رأيت جماعة من الرجال يجلسون على مصطبة بجوار دكان الخياط سلام عليكم، عليكم السلام جلست جوارهم. كان الراديو يرفع عقيرته بالغناء الحماسى، وكل الاغانى تقول مصر مصر مصر مصر وكلاما كثيرا غريبا قلت «ما هذه الاغنيات؟» قالوا «مالها؟» قلت «فيها جر شكل كبير» قالوا «سمعنا الراديو من برهة يقول أن ثلاث دول كبيرة هى فرنسا وبريطانيا ومن تسمى باسرائيل قد هجموا على مدينة بور سعيد ـ الباسلة ـ وأن الله نصر أبو عبد الناصر عليهم»، وكان صوت «أم كلثوم» يغنى قائلا صوت السلام هو اللى كان والليل حكم! . قلت: «يه. يه.. يه مصر الآن بخير يعنى أم لا؟» قالوا «العلم عند الله» قلت «مسافر أنا اليها فى

الغد» قالوا: «سلم لنا على ولد ابو عبد الناصر».. قلت كاشى سائل: «يوصل» ثم حمدت يابوى، قلت لابد أن طيبة قلب امى هى التى عطلتنى من أجل «شدة لى» فهل من المعقول أن ينتصر «عبد الناصر» على ثلاث دول؟ أما اسرائيل هذه فلم أكن سمعت عنها من قبل يابوى وأما فرنسا وبريطانيا فأعرف أننا كنا واقعين تحت احتلالهم حتى مجيء «أبو عبد الناصر» الجدع «الأمير» هو صحيح جدع وأمير وبطل، ولكن هل من المعقول أن يحقق مثل هذه المعجزات يابوى؟!

عصفت الريح فجاة وأهالت علينا تلاليس تراب، فأحسست والله أن الجو ينذر بالخطر مر اثنان من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» يصفقان يديهما فى منحنى الجلابيه، وكانا مسرعين يبدو عليهم الاضطراب والبرجلة، لم يلقيا السلام علينا، فنظرنا إلى بعضنا وقلنا «استر يارب» ذلك أن مشيتهم ذكرتنا بمشية «عبد الرحمن ملك الموت» بعدها بقليل فات علينا اثنان آخران من نفس العائلة يمشيان نفس المشية الملهوجة ولكن فى الاتجاه العكسى وفى أعقابهما فاتت امرأتان تتدثران فى ملسين أسودين ولا يبين من جسديهما أى شيء، وكان يبدو من شكلهما أنهما غريبتان عن البلدة

تابعناهما بعيوننا حتى احتفتا فى حودة الشارع كفت الاغنيات فجأة وخرج من الراديو صوت «عبد الناصر» بذات نفسه يهدر

بكلام كثير حلو فهمت منه أنه يوجد في مدينة السويس قناة حفرها أناسا وكانت عرسا تضع يدها عليها وتبيع المرور فيها لخلق الله بأموال طائلة وأن «أبو عبد الناصر» الجبار أخذ منهم هذه القناة قائلا: جحا أولى بلحم ثوره. صفقت وأنا لهذا الكلام ولما فهموني معناه على الحقيقة تفجرت صياحا مع هدير السامعين، هتفت: يحميك!.. يحميك يا أبو عبد الناصر يا جمال..

إلا وصياح شديد يجيء من يميننا ويقترب. إذ نحن كلنا وقوف ننتظر. وإذا برجل يجرجر جسد امرأة على الأرض وخلفه جمع رجال وأطفال يصيحون ويزأطون ويجعرون فما اقتربوا مما تبين لنا أن المرأة المجرجرة على الأرض هي إحدى امرأتين اللتين مرتا علينا من قبل، وأن الرجل الذي يجرجرها هو أحد رجال عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» الذي مر علينا من قبل، وكان يصيح من أعماقه: قل أنا امرأة يا ابن الكلب. والله يا حاج لم تمض دقيقة حتى امتلأ الشارع عن آخره بناس من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» وأقاربه، راح كل منهم ينزع عن هذه المرأة شيئا حتى عروها كما ولدتها أمها فإذا بالصياح يرتفع ساخرا مستنكرا وإذا بنا نبصر رجلا كامل الرجولة وإذا هو «عجرود» ابن العمدة كان متنكرا ليهرب من البلدة قبل أن يفكر ولد عم «عبد الرحمن ملك الموت» في اصطياده، ولم يكن يعرف أنه خرج من جحر الدار إلى المصيدة نفسها و.. يا زين صلي"!.

محروقة يا بوي؟ جهنم الحمراء انطلقت؟ فئوس وكريكات وبلط وسكاكين ومحارط ومناشير، غير العصي والنبابيت. كل ذلك راح ينهال فوق جسد «عجرود» ابن العمدة أبوحجير ورفيقه الذي كان متنكرا في رحلة الهرب! الناس يا بوي رأت المنظر هكذا فأخذت تنصرف من كثرة البشاعة، حيث سقط جسد «عجرود» المسكين على الأرض رأسه مفتت كراس الذبيحة. جاءت نساء من عائلة «عبد الرحمن ملك الموت» يجرين نحو الجثة، ملن عليها ورحن يشربن من دمها كما يشربن عصير القصب، ويغمسن يمسحن الدم عن شفاههن، ونساء أخريات مررن فوق الجثة سبع مرات، ثم انهالت السكاكين والبلط تقطع في لحم عجرود ورفيقه وترمي للكلاب التي تكاثرت واستعرت. والله لم يتبق من جثتهما سوى بقايا عظم وأظافر، وحصيرة دم راحت الكلاب المسعورة تلعقها في سأم"!..

كل ذلك ونحن جلوس في أماكننا يا بوي. في العصر جاءت عسكر الحكومة واستجوبت من لقيته من الناس، فلم يفتح أحد فمه بكلمة، فانصرف العسكر دون أن يقبضوا على أحد مروا في طريق عودتهم بدار تنبعث منها الزغاريد العالية والطبول والدفوف الراقصة، ولو سألوا عن الدار التي ينبعث منها هذا الفرح لقيل لهم أنها دار «عبد الرحمن ملك الموت»، ولو فكروا في الفرجة على هذا الفرح لرأوا صيوان العزاء قد أقيم وبدأ الرجال

يرشون الأرض ويرصون الكراسي ويعدون الميكروفون. فاليوم فقط يحق لهم تقبل العزاء في فقيدهم.

امتلأ جو البلدة بالغبار المسود، ولم تتمكن أمي من صنع لقمة طرية أو فعل شيء بعد الذي رأيناه رؤية العين في قلب شارعنا في قلب الظهيرة والشمس مخترقة سقف السماء. وجاء خبر الحرب في بور سعيد فكسر مقاديفي يابوي وصور لي مصر القاهرة كأنها ماسورة مدفع كبير قل أن يدي تطاولت على أجرة السكة، أخذت منها ثمن ورقة دخان لف، وفي ثاني يوم ورقة ثانية، وثالثة في ثالث يوم آخر قرش اشتريت به سيجارتين فكي فرطتهما ولففت خمس سجائر رفيعة وجلست في حوش دارنا أفكر في محنة، قلبي هذا العلق اللعين يريد أن يربطني بمصيرها، لا يريد أن يبرح البلدة ويتركها أجد نفسي جالساً في عز الليل وحدي أقول لنفسي ما الذي ستفعله هذه المسكينة الغلبانة التي لم يعد بها أحد في هذه البلدة؟ هل يعوضها العمدة المنكوب في أعز مخلوقين لديه؟! هل يستطيع أي عوض أن ينسيها بشاعة ما حدث لأبيها؟ صدقت ياخال إذا قلت لك أني الوحيد الذي يستطيع أن ينسيها لو أخذتها معي إلى مصر بعيداً بعيداً وأريتها من فنون العشق والجنون الكامن في مصر ماينسيها أهلها وحتى اسمها آه ـ فقط لو أراها!!

الأيام تجر بعضها ومزاجي معكر يابوي، ليس في جيبي سيجارة ودمي السحن يمسكني عن طلبها من أي خسيس دخل

عليه شهر رمضان، أهلاً وسهلاً شهر مبارك، هو ونصيبه. أول يوم كنت جالساً ساعة العصر أفكر في ما عسى أن تكون أمي قد أعدته لنا في الإفطار في شهر رمضان عند الإفطار تخرج الصواني من دور كل فروع العائلة لتصف في المندرة، حيث يتجمع رجال العائلة ويستقدمون معهم من يلقونه في الطريق أو من يعرفونه من قبل أو من يشدونه عنوة للإفطار من أبناء السبيل. دارنا هي آخر دار في الصف منعزلة قليلاً لكنها ـ شأن بقية دور العائلة ـ متصلة بالمندرة، فإذا كنت جالساً في مندرتنا ساعة الإفطار تلاحظ أن للمندرة باباً داخلياً يفتح على دهليز مستطيل كأنه شارع داخلي تحفه الجدران وتفتح عليه أبواب الدور على الجنبين.

تخيلت نفسي جالساً في المندرة بين الرجال أرقب الصينية القادمة من دارنا أتخيل منظرها وما سيكون عليه من تعاسة. توهت نفسي بعيداً عن شارعنا، عامداً متعمداً، حتى أدركني أذان المغرب في جامع في ناحية أخرى من البلد. فأمسك بي رجل كنت أعرفه من زمن ولم أكن قابلته منذ سافرت إلى المحروسة مصر! رأسه وألف سيف أن أذهب للإفطار معه. ذهبت يابوي، فإذا بالرجل يقدم الصينية أمامي عليها فصلة حبيرك أربع فردات من الحمام السمين وسلطانية الشوربة التي لا مثيل لها في تعمير الدماغ. بالهناء والشفاء أكلنا وشربنا الشاي والذي منه ثم اتكلت على الله مروحاً إلى دارنا.

ثانى يوم فى رمضان عدى على خير هو الآخر واستقضيته كلشنكان. ثالث يوم فات هو الآخر لا أعرف كيف. رابع يوم كان يوم اثنين وهو يوم سوق بلدتنا. فى يوم السوق لابد أن تشتعل الكوانين فى كافة الدور حتى دور الغلابة والأرامل، فالشحاذ نفسه لابد أن يستقصى فى هذا اليوم لحما ويطبخه، والبلدة كلها من أجعص جعيص لأفقر فقير لا تأكل اللحم الا فى يوم السوق هذا اللهم الا بعض الايام المفترجة وهى لحسن الحظ معدودة على الاصابع كل عام، وفيما عدا ذلك من أيام فلا أحد يذبح أو ينصب سبة لحم

فى الضحى دخلت على أمى «معك نقود لنشترى لحما يامّ»

قالت «لا.. ولا مليم».

انكسفت وسكت، ثم خرجت. صليت العصر وضيعت وقتا عند دكان انجباط. إلا وصاحبى الذى عزمنى على الإفطار أول يوم مقدما لى الحمام يلتقى بى وجها لوجه على غير انتظار اندفعت بحماس أعزم عليه أن يتفضل اليوم للإفطار عندى، شددت فى العزومة فاستجاب مرة واحدة ولم يترك لى فرصة للتراجع، بل مضى جوارى نحو دارنا. تركته وحده فى الحوش ودخلت على أمى، وقعت فى عرضها

- «دبرينى يامّ. احفظى لى ماء وجهى. الرجل جالس فى الحوش بالفعل ولا مفر من تناوله الفطور معنا».

نوحت أمى بكفيها فى يأس، قالت فى شفقة

- «ربى اقطعنى. والله ياولدى ما احتكم فى دارى الا على سمن وبيض. ان شئت ملأت لكما الطاسة بيضا فى السمن مع جبنة قديمة ولفت وفجل وجرجير»..

امسكت بطوق جلبابى استعداد لشقه من فرط الشعور بالعار قلت وأنا على وشك البكاء

- «بيض ولفت؟! الرجل يؤكلنى حماما. وأنا أعزمه على بيض ولفت؟! ياللهوان!».

قالت أمى بكل بساطة

- «كل واحد على قد حاله ياولدى»

شددت طوقى حتى تمزق بالفعل مقدار عقلة أصبع، وصحت صيحة مكتومة من الغل.

«اليوم سوق! وكل شحاذ يطبخ اليوم لحما! وأنا أقدم لضيفى بيضا مقليا ولفت؟! أين أضع وجهى يامّ؟!».

تحيرت أمى، وفى تسليم بالهزيمة فكت عقدة منديلها المحلاوى عن اثنى عشر قرشا حلفت بالختمة الشريفة أنها لا تمتلك من حطام الدنيا سواها كانت تدخرها لأمن ذى خطر. لهفت القروش منها وجريت متشمما أنفاسى، معى ثمن رطل من اللحم بحمد الله عليه فضل وعدل. يممت نحو السوق فلم أجد سوى

بقايا عظام وفصلات فروشات الباعة عدت كاسف البال ياخال. لففت على دور الشارع دارا دارا أسأل صاحبة كل دار «عندكيش حمام ياخاله؟»..

- «لا والنبي يابني»

فعدت إلى الدار أجرجر ساقي جلست بجوار ضيفي كأني في محرمة أتلقى العزاء، فتارة يخيل لي أن جلدي مثقوب من فوق مؤخرتي بالضبط، وتارة يتخيل لي أنني قد تبولت على نفسي فجأة، وتارة ثالثة أتخيل أن ضيفي قد رأى كل شيء وأحس بكل شيء الأرض راحت ترتفع أمام عيني وتتحصص بابوي، وتلف، فرأيت من مكاني في الحوش نسوان الدار وقد انتهين من المندرة ووضع المساند وتجهيز الطبالي وطشوت الغسيل والأباريق النحاسية والفوط جوارها وصواني القلل، والشمس صرفت لونها الأصفر ولبست الأحمر المشتعل وهاهي ذي قد بدأت تتفحم وتذبل حمرتها المتقدة، وأخذ ضيفي يبسمل ويحوقل في انتظار صلاة المغرب. خلاص يعني؟ سأقع في هذه الوحلة يارب! تخيلت نفسي ساحبا ضيفي داخلا به المندرة على الرجال والحيرة تغرقني تلحمني لا أعرف من شدة الحرج على أي طبلية أحود لنتطفل عليها معا متجاهلين طبليتي!! فكادت الدموع تفر من عيني، وسمعت صوت الطشطشة فتيقنت أن أمي قد سيحت السمن وطقشت البيض وقلبته فيه شيء إلهي ذكرني بابنة خالتي «ميسة» وهي امرأة تحبني وتعزني كثيرا لأني أحمل شبها من

أمها المرحومة، وهي متزوجة في قبلي البلد وكلما رأتني عزمتني على الإفطار وهددتني بالغضب إن لم ألب دعوتها وكنت - تهربا من إلحاحها - قد حلفت لها لأحضر ذات لحظة طالبا الإفطار بنفسي

الله وكيل! ما أن تذكرتها حتى رأيت ابنتها الصبية مقبلة علينا توسع فرجة الباب بردفها وتدخل صائحة «سالخير ياخالتي» فنهضت مسرعا إليها كانت تحمل على رأسها سلة كبيرة من الخوص مغطاة بشاش، ميلت نحوي قائلة «أمي تسلم عليك وتقول لك ما دمت لا تريد أن تجيء لتفطر معنا فإفطارك يجيء لحد عندك» وتركت السلة في يدي وانصرفت. قلت: «ياما انت كريم يارب»، ودخلت أجري إلى أمي. رفعت الشاش فرأيت حلة كبيرة، فتحتها وجدت فصلة حيرك لحوما وطيورا وأرزا فأخذت السمن المقدوح من يد أمي ودلقته فوق الشوربة وقلت لها «جهزي الصينية ياأمه»، وعدت إلى الحوش وقد أحسست أن قامتي قد اعتدلت ياخال، وجرت الدماء في لحمي الناشف، وقلت لضيفي بكل ثقة «تفضل معي إلى المندرة»، ومشينا في الدهليز المستطيل نحو المندرة أكاد أقول ياأرض اشتدي ما فوقك قدي.

في تلك الليلة ظللت ساهرا حتى شروق الشمس ياخال، غير أنه أشرقت علي في الطريق وأنا متوجه إلى مصر بدون نقود التذكرة وبدون أي شيء وكنت واثقا والله ياخال أني سوف أصل بسلامة الله، كيف.. لا أدري

الجهات أربع

الأولة.. في الليل البهيم

شريط السكة الحديد يخترق بلدتنا يفصل الغرب عن الشرق الغرب في بلادنا أقوى من الشرق، لكن الشرق أغنى من الغرب بسبب أن أهل الشرق مجاورون للنيل مباشرة، يزرعون الأرض أكثر من زرعة، وهي أجود أرض في الناحية كلها، طما، باقور، ساحل سليم، المطيعة، أبو تيج، النخيلة، شطب، أولاد إلياس، المسرد، المعصرة، العمارة، البدارى، كوم المغربي تحت الجبل الشرقي، وغيرها يأوى أرض يحلف الزرع بحياتها، وأهلهم كلهم مبسوطون وعال العال. الدور والباقي على أهل الغرب مثل صدفة، ادرونكا، الزاوية، المسعودي، الزرابي، المشايعة، الدوير، كوم سعفت، أبو حجر، كوم سعيد، الوعصل سلامون، اشناينة، النجع، الربايعة، البربة، العامري، العزايزة، الغنايم، دير الجنادلة، كردوس، بني فيز، القطنة. بلاد كلها يكثر فيها الفقر كلما كثر عدد الرجال وما أشد ما يكثر يوما بعد يوم، فكل بضع سنوات

تمتلىء البلاد برجال جدد، بلا عمل ولا أملاك ولا أى شيء، فمن أين تأكل يابوى!؟

أراضى الشرق وملاكها يستخدمون البعض بتراب الفلوس أنفارا وتملية وخفراء وزرايبية، وباقى الرجال يعيشون على الخطف والنهب والسرقة والاغتصاب شيء فظيع ياخال، لم يفقد بلادنا كلها من جحافل الصعيد الزاحفة سوى سد السفر إلى البلاد العربية، حيث هاجر إلى السعودية والكويت والامارات وليبيا والعراق أعداد لا حصر لها من المتعطلين الذين يشيبون ليالي الصعيد ويهروبها كانوا يثيرون الرعب المتواصل في عز الظهر الأحمر لكنهم - صدقني - كانوا يؤنسون وحشة الليل. آلاف المتعطلين المجرمين تقذف بهم البطون الخصبة والدماء الساخنة في الصعيد! بلادنا تحب سيدنا محمد وتريده يتباهى بهم يوم القيامة بحق! وإن شاء الله يوم تقوم القيامة الحقيقية ياخال فسوف تكون في مصر!! فمنذ طفولتي وأنا متأكد أن الناس ستأكل بعضها بعضا في يوم قريب صار على الأبواب! مثلما حدث ذات يوم في بلدة «بني فير»، حيث تقاتل رجالها حتى أفنوا بعضهم فناء تاما!!

يبدأ موسم الخطف حينما تكبر الذرة في الغيطان. كل واحد يخطف له خطفة واحدة كبيرة يعيش عليها بقية العام إلى أن يدبر لخطفة جديدة تجيء له جواسيسه من الشرق قائلة له أن فلان

... من ذوى الأملاك سوف يخرج فى الساعة الفلانية فى ... يوم الفلانى متوجها إلى المكان الفلانى لا يقع تحت طائلة ... إلا الدس المهمون التحاين، الذين يجيء من ورائهم خير ... مضمون. يكون الرجل ماشيا فى حاله تحت جنح الظلام أو ... ضوء القمر لا يهم، فإذا بالأشباح تخرج له من بين عيدان الذرة ... عليه ممسكة به تحت وابل من الرشاشات الهوائية المرعبة ... فى حراسة أحد فإن مصيره معلق بنفاد الذخيرة من أحد الطرفين، وإن كان وحده فإنه سيسلم نفسه حتى لو أصابه رصاصة يتكلون به على الله إلى مخبأ بعيد. يرسل الخاطف واحد من طرفه يبلغ عائلة المخطوف بشكل ملفوف، كأن يكون ... المرسل بائعا سريحا مثلا ويقول أمام رهط من القوم أنه سمع ... وكذا فى البلدة الفلانية أهل المخطوف ما أن يسمعوا الخبر حتى يكتموه ويكفون فوقه ماجورا، وإذا ما سألهم أحدهم عن مخطوفهم فإنهم يزعمون أنه مسافر فى مشوار وسوف يعود، ... بالطبع لا يجرءون على تبليغ البوليس، لأن الخاطف بمجرد ... جواسيسه أن الخبر وصل إلى الحكومة يكون عليه ... فى المخطوف، سوف تختفى جثته فى مكان لا يعرفه أحد. ... فأول شيء يفعله أهل المخطوف أن يبدءوا فى البحث عن ... يعرف الخاطف لكى يتفاهم معه. كل مخطوف على قدر ... تقدر ديته مطلوب ألف، ألفان، ثلاثة عشرة يأخذها ... حتى يطلق سراح المخطوف، فى لحظة يختارها الخاطف.

يفجأ أهل المخطوف بمخطوفهم يدخل عليهم الدار ذات لحظة، وإن سألوه هل يستطيع أن يصف لهم أي شيء عن المكان الذي خبئ فيه ولا وجه أي أحد، لأنه من لحظة اختطافه للحظة الإفراج عنه يظل معصوب العينين مكتوف اليدين يدخل له بالطعام والشراب أطفال صغار مجهولون في أماكن مجهولة، وقد يحدث الاتفاق على الإفراج في بلدة غير التي تم الخطف فيها، وقد يتم الافراج في بلدة أخرى بعيدة في ساعة دامسة الظلام.

مثل كل الأمهات في بلدتنا كانت أمي تحذرني دائما تمشي مع هؤلاء الولد، تقول لي:

- «قم فامض معهم مشوارا أو مشوارين بدلا من قعدتك هذه يكرمك الله بالعشاء».

ولم أكن جربت المشي معهم من قبل بحال. وكنت أمشي قاصدا المحطة أركب منها القطار إلى مصر ولم يكن معي نقود أركب بها لكن عشمي في الله كان كبيرا. أن أنحشر في الزحام، ففي الزحام تتحرك يدي بكل حرية والناس ملهية في كتمة الزحمة. دخلت محطة القطار، انحشرت بين الواقفين أمام شباك التذاكر كان معي ثمن التذكرة. لمحت رجلا عفيا يمسك بيده جنيها كاملا، يدفع الناس بقوة لطيفة يزيحهم من أمامه يتقدم نحو شباك التذاكر يكاد يلامسه التصقت به مباشرة بانوى كابسي ففيته، ما كاد يصير أمام فتحة الشباك حتى ناداه ولد عمه من بعيد، وكانت

اعه لحظتها قد تسربت بالفعل من فتحة الشباك رامية ورقة جنيه على الرخمة في حين استدار هو ليتكلم مع ولد عمه الذي راح ناحيه ويمطى معه في الكلام. لحظتها كنت قد صرت أمام الشباك مباشرة ورأسي الصغيرة تطل على موظف التذاكر من خلال الفتحة، الذي نظر لي وللجنيه المرمي أمامه قائلا «فين؟» قال بسرعة «سيوط»، فقطع التذكرة وجاء بقية الجنيه أزاحها أمامي فأخذتها ورقت من بين الأفخاذ والأرجل وانطلقت أجري كالريح. وكان الزحام قد لفظ صاحب الجنيه فصار يحاول التحول فيه من جديد والوصول إلى الشباك ثانية، فيما يصيح متعرا: «تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه» تلاته سيوط يابيه وبقية الجنيه» قلت لنفسي. فرحت ياولد، وفتحت رجلي في المشي متدحرجا نحو سفح الطريق.

الثانية ـ الوقوع فى عرين النار

عصا عى وجدتنى بحذاء الجبل. كنت جرمنا فاشتريت ورقة دخان وتشوقت لكوبة شاى، فقلت للرجل الذى باعنى الدخان: «ألا يستطيع المرء أن يشرب كوبة شاى فى هذا الطريق القفر؟» فنظر فى عينى مباشرة وراح يتفحصهما، ثم قال بهدوء الماهر: «يستطيع! طالما فى الطريق ناس فإنك لابد أن تجد فيه محتاجه!» قلت: «ربنا دائما يوقف لنا أولاد الحلال!» قال: «تفضل! لف وادخل!»

وكنت أظن أن العشة المربعة التى يجلس فيها على الطريق وسع السكر والشاى والدخان وإبر الوابور والخيط والحلوى فى مجرد هذا المربع الصغير، فلما لففت فى الاتجاه الذى أشار لى عليه وجدتنى فى دار أخرى يابوى، بل وجدتنى فى مملكة. مثلث كبير من الأرض فى منحدر خادع، مسور بالحديد والسلك أرضه تأخذ فى العلو كلما اقتربت منها فلما دخلتها خيل لى أننى أدخل تحت الطريق فى سرداب متصل بالجبل الشرقى يمر من تحته مسافة طويلة لابد أنه يكون من شق الفراعين أنفسهم ولا أحد سواهم يعوث فى قلب الصخور هكذا. ثم فوجئت بأننى فى مغارة

محفورة فى جذر الجبل على شكل فسقية مهولة تصلح ان تكون سامرا تحت الارض وتصلح ان تكون مدفنا للقوم كلهم. عشرات الرجال والنساء رأيتهم يجلسون جماعات او اثنين يشربون الشاى والقهوة والقرفة المطرية ويدخنون الحشيش على الجورة، وثمة من يقوم بخدمة هؤلاء جميعا من ولدان متحركين نشطين. ما هذا المولد يابوى؟ الرجل الطيب ظن بي خيرا، لابد ان منظرى خدعه فتصور انى اريد ما يريده هؤلاء! اين انا من هؤلاء يابوى؟!

استقربت صخرة مربعة جلست فوقها، رحت أتأمل فى هذا الخلق الذى لم أكن رأيته من قبل أبدا يابوى ولم أكن أعرف انه موجود فى هذا المكان. جاءنى أحد الولدان. سالخير ياأبو العم. مساء النور أهلا وسهلا. تشرب ايه؟ قلت كوب شاى من فضلك واحسانك. ما مرت دقيقة إلا وجاءتني الصينية عليها براد خارج لتوه من صهد الرمل تفوح منه رائحة شاى طازج ومعه كوبة مع قطع من السكر وضعت القطع فى الكوبة وصرت أدلق من البربوز فى الكوبة فوق السكر وأعود فادلق فى البراد واكرر حتى صار الشاى مربوبا مرغيا وآخر حلاوة. صرت أشرب وأدخن ونفسى مفتوحة لنفسين من الحشيش الذى بدا يدخل فى نخاشيشي ويملها. شفطة شاى والثانية ورأيت ظلا يقف على دماغى ويصيح «حسن ولد أبو ضب» فزعت ناظرا إليه، قلت: «حدامك أهلا وسهلا.. بالثلثمائة مرحبا». جلس بجوارى، منظره جدع محترم، يلبس الكشميرة والصديرى الشاهي، من الواضح أن جنبيه منتفخان بالمسدس وخزينة الذخيرة والمحفظة، عمامة كبيرة

بشأن ناصع البياض حول طاقية بيضاء، جبين عريض مبيض وجهم، شارب مستمر على الدوام باصبعين يحركهما فوق شفتيه الرفيعتين باستمرار قلت.

- «من الكريم؟».

قال

- «تهت عني ياحسن ياولد ابى ضب».

قلت

- «العتب على النظر! لا تؤاخذني!».

- «محسوبك زناتي»

صحت فيه مقاطعا

- «ولد محيمر ابو ناهيه»

تبسم قائلا

«براوه عليك»

قلت

- «أجاويد بنى قين»

قال

- «الله ينور عليك.. كيف حال الجماعة؟».

قلت كأنني الماكينة

- «بخير»

ثم تذكرت أن الجماعة الذين يقصدهم هم أولاد عمي الكبير، اذ أن «رناتي» هذا ولد عم زوجة عمي لزم، صببت كوبة شاي قدمتها له «تفضل الشاي» فامسكت الكوبة يد كبيرة تلمع فى أصابعها الخواتم الذهبية وقال «تشكر يا أبو العم»، ثم شخط وهز يده الكبيرة باسما فيما يقول.

- «لكن كيف وصلت إلى هذا المكان يابو العم؟! انك اذن لشقي خطير!!»

رفعت كفي مشهدا الله صائحا

- «مظلوم والله.. إنما حودت لاشرب كوبة شاي وهذه أول مرة أخطو هذه العتبة! صدقني يابو العم!»

قال ضاحكا

- «طبعا طبعا والا كنا رأيناك وعرفناك!!» ففهمت أنه من أعيان هذه القعدة، وأخرجت علبة دخاني وقدمتها له قائلا «لف لك واحدة»، فتناولها، ولاحظ أن شيئا كان لصيقا بها قد وقع منها على الأرض بجواره فمال وأخذه، فاذا هو تذكرة القطر نظر فيها وقدمها لي قائلا

«كنت مسافرا سيوط ولا ايه يابو العم؟»

خفق والله قلبي ياخال، قلت بلجلجة

- «لم يحصل نصيب يابو العم.. قطعت التذكرة وجريت لكن القطر كان أسرع مني وما نابني إلا أن اطرشت في الأرض! فحلفت ألا أسافر اليوم!».

قال مشوحا بيده في بساطة

- «ولد عمي عمل مصيبة اليوم من أجل تذكرة كهذه .. كاد روح فيها قتيل لولا أن ربنا سلم!» زلطة خشنة انحشرت في حلقي ياابوي، وأنا أحاول أن أندهش قائلا في استنكار.

- «اليوم اليوم !!»

قال

«منذ دقائق! جاءنا الخبر أنه يتعارك في المحطة.. جئنا نجري لم نجده. لكننا وجدنا جثة وهبه أفندي موظف التذاكر بالسكة الحديد ممددة على رصيف المحطة مشجوجة الرأس متورمة الوجه تئن تتأوه بين الحياة والموت. وبعض رجال آخرين من زملائه منهم من تهشمت أضلاعه ومن تكسرت أسنانه ومن جدع أنفه ومن انفتح حاجبه! سألنا ما الأمر ياناس؟ قالوا أن ولد عمي أعطى جنيها لوهبه أفندي وطلب ثلاث تذاكر لأسيوط ويزعم وهبه أفندي أنه لم يعطه شيئا كلمة من هنا وكلمة من هنا هاج ولد عمي واشتغل ضربا في الجميع وبعد هارب نحو الجبل فظننت أنه ربما يكون قد جاء إلى هنا فجئت أسأل عنه!!»

غاص قلبي في ضلوعي ياخال، صغر وتلاشت دقاته. قلت في صوت مرتعب في ولوله

- «يه يه يه.. لا حول الله له في حلقه شئون»

وصرت أتصيد عين محدثي باحثا عن شيء فيها يكون قد وشى بي، فلما رأيته يستقر معي في واد بعيد عني وجدتني أقول.

- «أمن المؤكد أنه قد يجيء إلى هنا للآن؟ أم تراه يهرب في مكان بعيد؟!».

قال ناظرا إلى كأنه يستعبطني ولكن بلطف.

- «لا مكان للهرب سوى هنا يا أبو العم»..

قلت برعدة خفيفة

- «نحن إذن في قلب الجبل الآن!!»

قال كرجل يعلم ابنه خطوط الطريق:

- «نحن الآن في مقهى الجبل. هذا هو المكان الوحيد الذي يعيش فيه المطاريد حياتهم الطبيعية بعيدا عن الأعداء!.. هذا المكان الذي يشبه القسقية بسراديبها هو الخلاء الذي يعيش فيه المطاريد بحريتهم. هو مكان اللقاء المضمون بين المطاريد وحريمهم وعشيقاتهم ومصادر دخلهم وتموينهم. أصحابه المطاريد أنفسهم وكل الولاد المشتغلين ها هنا من أبناء المطاريد ولدوا هنا وربما القيت بذرتهم ها هنا أيضا ذات فجر بعيد».. وليس لغريب أن يقتحم حصار هذا المكان مهما كانت قوته ودباباته وطائراته، لأن المكان له عشرات السراديب السرية لا يعرفها إلا عدد محدود من عتاة المطاريد المعتقين في الجبل، وليس كل من يعرفها يستطيع أو يجرؤ على السير فيها وحده لأن بعضها يشبه بطون ثعابين

حرامية متعرجة لا نهاية لها! بعضها موصل إلى خلاء بين سفوح وبعضها موصل إلى عنق زجاجة مسدودة حيث لا سبيل للتقدم أو للقهقرى! وأما إدارة المكان فيتولاها عشرة من عتاة المطاريد يصرفون على موتها ويتقاسمون غلتها! يرأسهم عن جدارة ذلك الرجل صاحب كشك البيع الذي دلك على هذا المكان! لقد أرسلك وهو واثق أنك صيد ثمين لأتباعه الجالسين ها هنا!! فكل من يجلس أمامك وحواليك الآن هم من عتاة المطاريد! رجالا ونساء! هذه الحورية الملفوفة في جلباب أسود وطرحه سوداء أكبر مهربة مخدرات في الصعيد الجواني وهاربة من أحكام تصل إلى قرابة مائة عام! وهي تعيش حياتها ها هنا على أكمل وجه وتدير أملاكها وريع أراضيها على أتم ما يكون! لا ينقصها من متع الدنيا أي شيء! وبعد قليل سوف تنصرف من هنا إلى عشة مجهولة بين سفوح الجبل الشرقي تفوق سرايات الحكام فيها مراتب والحفة ووسائد وأسرة ودولاب وأرائك وأطباق وصحون ونار ولحوم ودواب! وهؤلاء رهط من رجالها أما زوجها فعضو في البرلمان يزورها كلما أكله أيره! وكل من يجلس ها هنا بينه وبين الحكومة ثارات لاتنتهي! حتى أنا نفسي كما لعلك تعرف سر بين المطاريد مكانه سوف تلمسها، فلقد هربت من السجن ثلاث مرات بثلاث جرائم قتل وفي كل هروب قتلت حارسا! أمك والله داعية لك! لعله كرم أعمامك الفقهاء هو الذي ألقى بي في طريقك قبل أن يكتشف أمرك ها هنا فيجردوك من كل شيء ويحكموا عليك بالسجن في الجبل مدى الحياة يسخرونك لخدمتهم تحت

حراستهم فإن تمردت قتلوك أو توهوك في الجبل شريدا لا تعرف لك رأسا من ذنب حتى تأكلك الوحوش والطيور الجارحة وانحشرت السامة أو يلتف حولك ثعبان من ثعابين الجبل المتوحشة ».

اعطني عقلك يابوي، فإن عقلي قد ذهب. لا أدري كم لبثت من زمن غائبا عن الوجود يحملني صوت «زناتي» يشيلني ويحطني ويبعثرني في شعاب الجبل تدوسني أقدام ثقيلة تطحنني ضروس بعد تمزيق أنياب. لكن «زناتي» حين لكزني في كتفي بعصا دحانه المعدنية الثمينة شهقت كأني استرددت نفسي وعدت روحا في جسد. ضحك «زناتي» وغمزني بالعلبة آذنا لي أن ألف لنفسي سيجارة، وكان يضحك قائلا في سخرية

- «هم يضحك وهم يبكي.. واحد يقتل من أجل تذكرة قطار وواحد يرمي نفس التذكرة نحن ندفع عمرنا ثمنا لتذكرة كهذه قد لا توصلنا إلى أي جهة. على الإنسان أن يمضي في هذه الحياة بغير تذكرة! لا في القطار ولا في الهباب!. حين يزنقك الحق ادفع وتخلص من الزنقة والسلام!. ما بال الواحد منا يضيع وقته في قطع تذكرة؟ المهم أن تلحق بالقطار ياأبو العم! ومن تنفع التذكرة من فاته القطار!»

وجاء براض شاي جديد لم نطعمه. أخذت أتلفت حوالي كأني أخشى مقدم الموت. وحقا نطق المثل من خاف من الذئب يطلع له، فإذا بالعملاق الذي سرقت جنيهه يدخل علينا كالهول.

الثالثة ـ المطاولـة

نهض «زناتي» فاستقبل ولد عمه العملاق. أما أنا فلم أقو على النهوض ياخال..

تخشبت مفاصلي، صرت أرتعش كأني في مهب ريح عاتية ياخال. أتوقع أن يهجم علي يبرمني كما يبرم المرء لقمة من رغيف ويحشرني في حنكه يفرمني بأسنانه. على أنه جلس بجوارنا وجعل ينظر في وجهي متفرسا كالمتوجس، ووجدتني أقول له

- «هدئ» أعصابك ياخوي.. الدنيا لم يعد فيها ذمة ولا ضمير!!»..

مشوح في عصب صامت كأنه يقول: «دعنا من هذا الأمر ومال على ولد عمه، فعرفه ولد عمه بي، فنظر لي من تحت جبينه مغتصبا ابتسامة مرهقة وقال «أهلا وسهلا بيك»، فقلت بحماس شديد: «ياألف مرحبا»، وهززت يدي جوار رأسي ونحو صدري عدة مرات في امتنان شديد.

نظر «زناتي» إلى أحد الولدان بطرف عينه، فلم تمض دقيقة حتى جاء بالجوزة والحجارة المرصوصة بالدخان المعسل. أخرج

زناتي من جيبه قطعة حشيش وراح يوقع منها بإبهامه فوق الحجارة، والولد يسقيا، ما هذه الأبهة ياولد؟ وما هذه الحلاوة وهذا الروقان؟ هكذا رحت أسأل نفسي وأردد مستعبرًا صحيح والله قوله تعالى «وفي السماء رزقكم وماتوعدون» ولقد والله تخيلت أنني صرت ملكا يجلس على صخرة العرش. مال «زناتي» على ولد عمه وقال مشيرا إلى

- «مكتوب له لقمة عيش في مشواره»

خفت وانبسطت في نفس الوقت. وقال ولد عمه

- «كل شيء نصيب»..

فقال «زناتي»..

- «لقد ساقه الله إلينا. ما عليك الا أن تتضرع لقطع الطرق إلى البلد!»..

جاء الولد بحجارة جديدة ونار وجوزة جديدة فكف «زناتي» عن الكلام وأخذ يرص الحشيش، وأخذنا نشرب في صمت، ومخي سارح في خبر هذا الكلام الذي سمعته الآن من «زناتي» فلما انصرف الولد ليغير ماء الجوزة والحجارة ويجدد النار مال «زناتي» نحوي وقال

- «فيك من يكتم السر؟

قلت:

«هيّ»!

قال، «أعرف أنك رجل ولد رجل»..

قلت «نتشكر من أصلك!»

قال «أوراءك شغل من هنا لحد الغد؟»

قلت «من هنا ليوم القيامة!»

قال «حلو»، ثم تمهل برهة وأضاف

«مشوارنا في بلدة أبو حجر نريد أن نخطف قسيسا «لاحـ هو تقريبا أغنى قسيس في البلدة!»

قلت

- البلدة كلها قسس.. وكلهم أغنياء!

قال:

- «القسيس بنيامين أغنى أغنيائها».

صحت قائلا

- «بنيا.. و.ي.. ين.. يه يه يه.. أما وجدتم غير بنيامين تخطفونه ياأبو العم؟ انه حويط جدا يا أبو العم لا يخرج من البلدة أبدا ليلا أو نهارا وإذا مرض فالطبيب يجيء لحد عنده!»

قال زناتي، «لكنه يخرج ويتحرك داخل البلدة»

قلت وقد هالني والله قوله

ـ «كيف ياأبو العم تجمعونه من شوارع بلدته؟! أن البلدة كلها من الأقباط فردا فردا ليس فيها مسلم واحد. حتى مواشيهم وكلابهم ودوابهم هي الأخرى تدين بدينهم وتحمل شكلهم وطبيعتهم!! صحيح أنها بلدة تعيش بمفردها معزولة وسط دائرة كلها من المسلمين. ولكن لا تنسى يا أبو العم أنهم أقباط أقوياء! عندهم سلاح كثير وذخيرة كثيرة وكهن أكثر ولؤم شنيع».

ابتسم «زناتي» وقال:

ـ «غدا أنسب يوم لننفذ خطتنا. فرجال البلدة كلهم يسرحون إلى الغيطان لجمع القطن ولن يبقى في البلدة طول النهار سوى الحريم والعجائز تخيفهم بضع طلقات!».

ميلت رأسي على خدي ورحت أفكر في كلام «زناتي»، ولم أكن وصلت إلى شاطئ أستقر عليه بعد حين عاجلني

ـ «معنا بإذن الله ياحسن؟»

خفت حدّة التردد، وأيقنت أنه قد يقتلني إذا انسحبت من الموافقة، فقلت

ـ «الله معنا جميعا بإذن الله»..

ولقد شعشع والله الحشيش في دماغي وصور لي أن «طلعة» كهذه تجيء لابد بمبلغ كبير محترم نحل فوق المساء مساء جديد، وفوق السهرة سهرات أمتع وأعمق حيث أمتد أمامنا خير نعيم

كثير من مأكل ومشرب وتفكير في الخطة المرسومة مرات ومرات ومرات نعدل فيها ونعدل التعديل ثم نعود فنلغي التعديل من أساسه ثم نعود فنعتمده بعد تعديل بسيط. كما سمعة رجال اثنان بمدفع الرشاشة على مدخل البلدة، اثنين في الشارع العمومي بمدافع الرشاشة أيضا، ثلاث بمدافع الرشاشة يهجمون على دار القسيس «بنيامين» الفلاح، مهمتهم انتزاعه منه بالحيلة أو بضغط السلاح إذا اضطرهم!..

القسيس «بنيامين» الفلاح عجوز زكي، قصره محاط بحديقة ذات سور مبني تحتوي على حظيرة كبيرة للمواشي والدواب، وهو يخرج من القصر ليتمشى في الحديقة الواسعة يعنى بشئون مواشيه يقلم الأشجار يروي الزرع والورد. لا يقترب من باب سور الحديقة إلا ليفتح الباب لأحد من خدمه أو فلاحيه، ولا يفتح الباب إلا بعد أن ينظر من خرم دقيق في حديد الباب السميك ويطمئن إلى أن الحارة كلها أمامه خالية إلا من الطارق الذي يعرفه، ولن يفتح إلا إذا عرف من تصادف مروره بالحارة لحظة الطرق وقد لا يفتح إلا بعد أن تفرغ الحارة تماما إلا من الطارق، ثم أنه لا يخرج من الباب إلا محفوفا بحراسة أشد من حراسة العمدة. أما الذين يعملون في معيته فكلهم من المقربين إليه جدا وممن تربوا على يديه وأمنوا بأمثل القتل من يأكل من خبز اليهودي يضرب بسيفه، وبعض هؤلاء يحمل في جيبه نسخة من مفتاح باب سور الحديقة المطل على الحارة!!

ذلك ما كنت أعرفه عن القس «بنيامين» وسمعت من زناتي، ورجاله ما عرفني به أكثر. الهمني الله بفكرة طيبة ياخال، قلتها لـ «زناتي».

- «سمعت من ناس كثيرين في بلدة أبو حجر أن امرأة خفير القسيس تدخل الحظيرة صبيحة كل يوم لتحلب الماشية وتفتح باب سور الحديقة بمفتاح تحتفظ به مربوطا في ضفيرة شعرها. فعلى أحد منكم أن يتصيد امرأة الخفير هذه وهي خارجة من دارها في الصبح فيكتفها ويكمم فمها ويأخذ منها المفتاح ويخفيها هي في مكان بعيد »

وصمت ناظرا فيهم لأرى وقع الفكرة على وجوههم فإذا بي أرى اعجابا واستنكارا معا نظرة واحدة، وابتسم «زناتي» وقال:

- «فكرتك حلوة ياأبو العم ولكن فيها معيلة عدم المؤاخذة! المرء لايبدأ العملية بالضرب من أولها وإلا جلب على نفسه الحجر وباظت عمليته. نحن يا أبو العم لا نريد الطخ واصل. نحن لانطخ إلا عند الاستغناء. أما ياأبو العم دعنا نحلي فكرتك هذه فنرسل الندامة من هنا لزوجة الخفير!»

وقف شعر رأسي، قلت

- «الندامة!! الجنية؟»

قال ببساطة وثقة

- «نعم.. الندامة التي يخوفونك بها!»

قلت ببساطة

- «أعندكم هنا ندامة؟!»

قال مشوحاً نحو الفراغ الممتد في سقف الجبل

- «عندنا كل عفاريت الأرض!!»

اعتدلت في قعدتي قائلا

- «عال! عال! منصورة بإذن الله!»

واعتدل «زناتي» هو الآخر وقال

- «الندامة تذهب بعد دقائق إلى دار الخفير وتنادي على زوجته باسمها. تدخلها وتخدرها وتسرق المفتاح من ضفيرة شعرها وتقعدها بعض أماكن غريبة وتعود بها إلى دارها فتبقى نائمة حتى العصر نكون قد انتهينا من شغلنا!!»..

استحسن الجميع الفكرة، وواصل زناتي موجها الكلام إلى أنا

- «وتجيء لك بثوب كثوبها. تلبسه وتدخل الحظيرة كأنك هي. تبدأ بحلب الماشية. وحين يجيء القسيس بنيامين ليتمم على الحلب تمسك به وتكتفه وتسلمه للثلاثة أبو قفين فالباب بدا بيد!»

تململ ولد العم ونطق بعد صمت طويل لكن فى ضجر

ـ «مادام المفتاح يصير فى يدنا . ما الداعى لمسألة أن يدخل الحظيرة ويحلب المواشي؟! فلندخل عليه ونمسك به من فوق فراشه ونتكل على الله!». لكزه «رماتى» فى جنبه بقوة، وقال

ـ «مجانين نحن! نرمى بأجسادنا فى مخدع الذئب! من أدرانا؟ انه لابد مستعد لأن يغلق علينا الباب فنأكل العلقة المودية إلى الموت! الأفضل يابو العم أن ينفذ حسن ما قلناه بالحرف الواحد!»..

ومن فوره قام، استقضى لى ثوبا نسائيا أسود وشالا أسود، وفى الحال ذهبت «الداهية» إلى ماكينة الفقس «بنيامين» التى يسهر خفيره عليها طول الليل، فأغرته بنفسها حتى اندلق على صدرها، فخدرته وتركته سطيحة تحت تعريشة تبعد عن الماكينة بمسافة هائلة. ثم ذهبت «الداهية» لدار الخفير فنادت على امرأته وأخبرتها أن زوجها يطلبها الآن لأمر ضرورى يتعلق بخير جاءهما يريدها أن تحمله معه إلى الدار. فخرجت معها الولية فعلا، فصارت تسليها بالكلام وتشممها المخدر حتى وصلت إلى ماكينة المياه جثة تتطوح فى الهواء. نيمتها «الداهية» بجوار الماكينة وفكت المفتاح من ضفيرة شعرها وعادت به إلى «رماتى» والشمس لم تطلع بعد

الرابعة ـ المحاولة

انطلقت أجرى بالمفتاح ومن خلفى ـ على مبعدة قليلة ـ الثلاثة المدججون بالسلاح، الذين سيقتحمون الدار لدى صيحتى. وصلت الى دار القسيس «بنيامين»، فتحت الباب، تسللت إلى الحظيرة، ولكن ما كدت أقترب من المواشى لأحلبها حتى ضجرت منى ونفرت وصارت تكسكس كلما لمستها وتنزاح هنا وهناك وتلفظ بالنعير، وكنت أعرف أن هذا سوف يحدث لأن المواشى تشم رائحة من يعتاد حلبها ولا تحن إلا إليه، إلا إذا كان الآخر حريفا، لكننى لم أكن أتصور أن هذه الحركة البسيطة سوف تلفت نظر «بنيامين»، إذ أننى رأيت خياله يقترب من باب الحظيرة قبل أن ألمس الماشية بيدى، ثم إذا به يتوقف فى الحال عندما سمع صخب الماشية المعبر عن عدم ترحيبها بى مما أكد لـ «بنيامين» أن شخصا غريبا قد اقتحم الحظيرة، ورأيت خيال يده وهو ينكسر ممتدا فى جيبه وخيال كتلة «المسدس» تعبر فوق الأرض مسرعة لتستقر بجوار قدمه، فانكمشت على نفسى تحت أقدام الماشية أحدا وضع الاستعداد لأى شىء. رأيت دماغ «بنيامين» يميل عن

المحتجب وينظر داخل الحظيرة متلصصا، وقعت عينه في عيني مباشرة فأصابه الهلع واستدار على الفور يجري. اندفعت أجري وراءه محاولا اللحاق به. كان أسرع مني بأحال، فدخل القصر وأغلق الباب وراءه، وإذا بنص يخترمني من الخلف يتشن على قفل الباب بطلقتين أصابت احداهما القسيس فصرخ في حين تهتك مكان القفل وانفتح الباب ورأينا القسيس جريحا يجري متقافزا على السلم الخشبي العريض ممسكا بموضع الجرح بيده وباليد الأخرى يستدير حصعا لنطلق تجاهنا بعض الطلقات حتى نفدت ذخيرته، وفوجئنا به يتسلل عبر شرفة السلم في الدور الثاني ليحتمي بدورانها، فحاصرناه رصاصنا داخل هذه الشرفة، وطلقات الرصاص ترد علينا من جميع أنحاء البلدة على سبيل التهديد، وأراد القسيس أن يعبر الشرفة من الخارج إلى شرفة الحجرة المجاورة ولها هي الأخرى افريز من الحديد المشغول، فهوى، كاد يهوى، أمسك بحديد الافريز وصار معلقا في الهواء، فاندفعنا إليه وجذبناه من قدميه بقوة فهوى بين صدورنا، فانطلقنا نجرى به تحت وابل من الرصاص المتطاير من أماكن مجهولة. وكانت الركائب في انتظارنا على أول الشارع فأقلتنا مسرعة في اتجاه مكان مجهول من الجبل حيث احتفى «بنيامين» واتفقت على أننا قد عدنا نجلس في المغارة ضاحكين كأن شيئا لم يكن. وفي آخر الليل أعطاني «زناتي» عشرة جنيهات بكاملها وقال لي: «اتكل على الله أنت. لا شأن لك بما حدث ولا بأي شيء آخر».

فعرفت أنه يأذن لي في الانصراف، فمضيت حين أحسست أنه يريد أن ينصرف إلى شأن من شئونه الكثيرة. وكنت فرحا غاية الفرح، ليس بالجنيهات العشرة بالطبع، ولكن للعملية في حد ذاتها بالحال. وكنت أود البقاء مع «زناتي» في هذه المملكة الساحرة، ولكني مع ذلك سمعت صوتا بداخلي يقول لي أنني لابد من سفرى إلى مصر قبل ضياع هذه الفرصة. واتخذت طريقي نحو محطة السكة الحديد.

فى عين العدو خمسة
الأولة ـ صورتان ليستا على الحائط

عند مزلقان محطة الزيتون سألت عن قهوة المعلم «دحروج السنطاوى» الشهير بظريف، فدلونى عليها، فإذا هى أشبه ما تكون بزرانة غرقانة فى أرض حتى الحزام، ومدخلها من وراء سور المحطة خبط لزق.

يه.. يه.. أهذه هى قهوة ظريف؟ يمين بالله أن عشة النقطة الثابتة التى يبيت فيها الخفير النظامى على مفارق الطرق لأحسن منها. غير أنه الصيت ولا الغنى

جعلت أهبط الدرج وقلبى منقبض والله يابوى، كأننى أدخل مسقية للدفن. وقد عجبت والله لناس محترمين كالمعلم «فرهود رمضان» ورجاله كيف يجدون هنا راحتهم. مقاول غير الذى أخبرنى عنه «شمدويلى»، يلعب فى زكائب من البنكنوت، كيف يجعل من هذه المقبرة مقرا له، يلتقى فيه برجاله وأنفاره ليقبضهم أجورهم ويوزع عليهم العمل؟ وأنا مالى يابوى؟ فليجلس حتى على كوم السماخ ما دامت المياه البنكنوت تجرى فى يمينه

وشماله. هذا ملك بطمه سيده سبحانه وتعالى، فألهم اكتب لنا لقمة عيش من يد المعلم «مرهود رمضان» مثلما كتبته لولد عمي وأهل بلدي، كل واحد سألته قال لي عليك بالمعلم «مرهود» وكل عاطل من بلدتنا يقولون له اجرى إلى المعلم مرهود لا تعود خائبا. قلت فلأجرى أنا الآخر إليه ولابد أنني واجد شغلا لديه، إذ هو يأخذ مقاولات كثيرة من الجيش المصري ومن الأهالي ومن كل الشركات والهيئات والوزارات، فالشغل عنده لا ينتهي وكل طالب نوعا من الشغل يجده عنده

فالصلاة على النبي خير بإذن الله وفيها عيش. هكذا قلت لنفسي حينما لمست قدمي قطعة خبز مرمية على الأرض بجوار النصبة. ملت عليها فالتقطتها فقبلتها ثلاثا ملامسا بها جبهتي في كل مرة ثم وضعتها في جيبي

النصبة كانت في مواجهتي مبنية بالقيشاني ورخامتها نظيفة لامعة وكذلك الحوض والصنبور النحاس والأكواب التي انكفأت. خلف النصبة لم يظهر أحد. أما المقهى فمستطيلة من الداخل تسع مائتي شخص بالراحة، والترابيزات العتيقة بعوارضها الخشبية الكالحة، المقاطيق الملتوية الأقدام المهيصة المفعصة، الكراسي المصنوعة من الخشب والقش متساندة من فرط التهالك على الحوائط وعلى بعضها البعض، كلها كلها متناثرة هنا وهناك وليس من أحد يوحد الله اللهم إلا قطة شقيانة كحيانة رقدت على كرسي فاردة جسمها عن آخره ومستغرقة في نوم عميق

رقص قلبي يا خال وانتفض بشدة، فقلبي دائما يرقص وينتفض هذه الانتفاضة التي لا أعرف إن كانت فرحا أم خوفا، عندما أجدني فجأة في محل ناس آخرين وليس معي أحد، إذ شرع دماغي في الحال في التفتيش على أثمن شيء موجود يمكن أن ألهفه بسرعة وأختفي في الحال قبل أن يدركني أحد. تطيرت عيناني محلقة في كل شيء بسرعة رجفانة، أخذت الرعشة تمشي في ساقي كالعادة. لم يكن ثمة من شيء ما هنا يستحق أن يسرق على كل حال سوى بعض الأكواب والبراريص. أما الحوائط فكانت عارية إلا من بعض الحصير لكسح الحشن، وعلى الحائط الخلفي للنصبة صورتان مما يباع مع المجلات بالألوان واحدة للرئيس أبو عبد الناصر والأخرى للمشير أبو عامر، الرئيس ينظر نظرة ناشفة مرعبة لشخص مجهول لعله العدو الصهيوني البريطاني الذي يحكون عنه في الراديو والجرانين، شاربه تحت أنفه المستطيل يتكتم بين شفتيه سرا شنيعا. أما المشير فإنه يبتسم ابتسامة سهلة وفي عينيه نظرة سلانة نائمة متسهلة مليئة بالود المشكوك فيه يا خال كأنها تغري بك افعل من وراء ظهري ما تشاء وابسط نفسك كيف د ـ هر فأنا عارف ومتغمض لكن إذا استعملتني مصيبتك سوده. خيل لي والله يا خال أن سعادة المشير يكاد ينطق قائلا لي الهف ما تشاء واجر وإن لم تجد أمامك شيئا يستحق اللهف فابحث تحت النصبة لعل وعسى. كدت أفعل والله يا خال لكن نظرة أبو عبد الناصر كانت تسمرني في مكاني وترعشني وتكاد تنطق هي الأخرى قائلة لي إياك إياك

وبتاع الناس فاحترم نفسك وابق بادبك تاكل عيشا بعرق جبينك أو فانصرف محتشما بدلا من التهريء وقلة القيمة

اما عقلي فقد قال يابوي ياولد انت قادم تبحث عن لقمة عيشك فلماذا تفكر هذه الافكار التي تغضب الله؟ اللهم أخزك ياشيطان. ثم صحت ياأسيادنا ياللي هنا! ياخلق! ياملايكه! ماذا بصوت يرد في جفاء وخشونة

- «عايز ايه ياجدع انت؟»

ارتعدت ياحال، لففت حول نفسي باحثا عن مكان الصوت فلم أجد أحدا قلت لنفسي ليس من المعقول أن الملائكة هكذا تقول. شكل للبيع وقلت مازحا

- «اظهر وبان عليك الأمان»

عاد الصوت مرة أخرى يرن رنينا عميقا

- «عايز إيه وبلاش غلبة؟»

آثار النوم كانت عالقة بالصوت. جلست على أقرب كرسي وقلت:

- «عايز واحد شاي»

فإذا أنا بمارد يتمطى متسللا من تحت النصبة يدعك في عينيه يتثاءب بصوت كالعواء. سحب السحان الكبير من فوق الرمالة، عدل كوبا وضع فيه قليلا من السكر وصب فوقه الشاي. أشار لي

بذراعه الطويلة قائلا «اتفضل»، ولكن بلهجة من يقول «اطلع». نهضت واقفا ودفعت إلى النصبة لأخذ الشاي فنظرت للرجل جيدا فرأيته طويلا نحيفا، وجهه مستطيل مليء بالأخاديد المشحونة بالقهر والشقاء وكبر السن، لكن في عينيه طيبة شديدة ويكتم بين شفتيه الرفيعتين جمة دم ظاهرة.

لامست الكوب بأصابعي فوجدته ساخنا فتركته منتهزا الفرصة للوقوف مع الرجل. كان معي سيجارتان معوجتان فعدلت واحدة وقومتها وأعطيتها له، ووضعت الأخرى معوجة في فمي قلت له:

- «مش دي قهوة المعلم دحروج السنطاوي برضه»

أشعل ورقة من تحت الرمالة أشعل بها سيجارته ثم قربها مني قائلا من خلال الدخان:

- «أنا المعلم دحروج السنطاوي يلزم خدمة؟»

ضحكت كأنني لا أصدقه

- «المعلم فرهود رمضان يقعد هنا؟»

قال:

- «عايز منه إيه؟»

قلت

- «عايز اشتغل»

قال مشوحا بكوب الشاي كأنه يطردني:

ـ «تجيء له هنا بعد صلاة المغرب»

جعلت أشرب الشاي في غيظ. قال الرجل بعد برهة كأنه صار من الآن مسئولا عني:

ـ «عندك مكان تبيت فيه؟»

قلت على الفور:

ـ «لا والله يا أبو العم. أنا من الصعايدة قبلي وقادم لتوي ولا أعرف أحدا هنا»

هز رأسه في يأس من سمع هذه القصة آلاف المرات، ثم شخط في صائحا:

ـ «ماعليناش.. ماذا ستفعل؟»

شوحت قائلا في ضيق:

ـ «أرض الله واسعة يا أبو العم. ومن يقصد الكريم لا يضام»

صب لنفسه كوبة شاي صغيرة كالكستبان شفط منها شفطة ومن السيجارة شفطة، رفع ذراعه اليمنى مشيرا إلى اتجاه المزلقان خلف المقهى:

ـ «هنا شادر بطيخ صاحبه الحاج رفقي وهو طيب وصعيدي مثلك من قديم الأزل! ينام عنده ولد عمك وبلدياتك الصعايدة وكلهم ممن لا أقارب لهم! ستراه قاعدا أمام شادر البطيخ حتى

الصبح! قل له إنك تشتغل عند المعلم فرهود وأعطه خمسة قروش سيدعك تدخل وتنام داخل الشادر! وإن دفعت له قرشين اثنين يدعك تنام بجواره في الخلاء ويحرسك هو حتى الصبح»

أحببت الرجل يا بوي، شكرته على هذه الخدمة الكبيرة ورحت أشرب الشاي على مهل طامعا في خدمة أخرى كهذه تقع من رجل أمامي فانتفع بها. لكن طفلا صغيرا صاح من أعلى السلم طالبا ستة شاي في الأجزخانة. فاستدار المعلم «دحروج» وصب الشاي في الأكواب الستة. مسرعة قمت أنا بسحب الصينية ورصصت فوقها الأكواب ثم ملأت كوبين بالماء ووضعتهما على الصينية قائلا: «أوديهم أنا». فابتسم قائلا: «أنت قهوجي؟»

قلت: «تعلمت من المعلم شندويلي». قال: «بتاع مصر القديمة؟»

صحت في فرح شديد: «تعرفه؟». قال في فرح أشد:

ـ «عشرة عمر! اشتغلنا سويا في القاعل وفي كل بلوى»

قلت:

ـ «عال! عال! كسبت صلاة النبي!»

وأحسست بأنني سيكون لي عشرة طيبة مع المعلم «دحروج» سحبت الصينية بالأكواب وشرعت أمضي قائلا: «فين الأجزخانة؟»

قال: «هنا»، وأشار إلى جانب المقهى، فحملت الصينية ومضيت حتى أوصلتها إلى الأجزخانة وعدت، لأجد المعلم «دحروج» يلف

سيجارة وضح لي أنه يحشوها بالحشيش، ففرحت كل الفرح يابوي، قلت له: «مساء الفل يامعلم». بص لي من تحت جبهته المنكسة قائلا «تشربه؟» قلت «أشربه» فاشعل السيجارة وجذب منها نفسين عميقين ثم قدمها لي، فسحبت نفسين أعمق، وأعدتها إليه، وهكذا راحت تنتقل بيننا الأنفاس العطرة حتى انتهت السيجارة بنغمشة في تلافيف مخي فعرفت أن المعلم «محروج» حشاش قراري وصاحب قراري أيضا قضيت معه أحلى عصرية، دار بيننا الكلام الطلي لا يقطعه إلا خروجه لتوصيل طلب، عرفت المعلم «محروج» كأنني تربيت معه وهذا أحلى ما فينا يامصريين ياولاد العرب المعلم «محروج» له أربعة ولدان صبيان موظفون في الدولة أحدهم وكيل وزارة العمل وأمين وحدة الاتحاد الاشتراكي عن الحي، وخمس بنات متزوجات من كبار التجار وكبار الموظفين، له أربع عتبات ملكا، كل عتبة تفتح عن خمسة أدوار وسبعة أدوار وكل دور يفتح على أربع شقق وخمس. كما أن له - فصلة خيرك - أرضا زراعية في بلاد الأرياف نواحي بلدته السنطة في الوجه البحري.

عرفت بين ما عرفت أشياء كثيرة عن الحاج «فرهود رمضان» أشهر مقاول عمومي في هذه الناحية كلها هو في الأصل لم يذهب إلى مدرسة. اشتغل عتالا في ميناء «أثر النبي» أيام كان قائما على شط نيل مصر القديمة، اشتغل مع «الأورنس» في «كامب الانجليز» موردا للأنفار ثم قائما ببعض العمليات الصغيرة من باطنها، جمع مالا كبيرا وخبرة واسعة، صار يأخذ عمليات

كبيرة للجيش البريطاني، بناء ثكنات عنابر مكاتب، مصنوعات ومعروشات وأدوات وكل شيء تطلبه منه ينفذه لك وكله بحسابه فلما قامت الثورة كان الحاج «فرهود» قد صار كبيرا يابوي، صارت لديه شركات كثيرة للنقل والشحن والتوزيع والبناء والتخطيط واستصلاح الأراضي، كل ذلك والحاج «فرهود» لا يعرف أكثر من فك الخط بإمضاء عاجزة لكنها بصمة لا يمكن تقليدها، يشتغل عنده ناس من كبار القوم يابوي مصروف عليهم ثقلهم ومن أرباب المراكز العالية يذهبون إلى مكاتبه كل يوم بمرتبات كبيرة يخصم منها السمع، ويلبسون الملابس ياشيء إعلاني ويركبون الأوتوموبيلات ذات الأجنحة كالطيارات، أما هو فلم يخلع الجلباب يابوي، لا ولا العباءة والعمامة الصعيدية الكبيرة حتى اليوم، وكل يوم يجيء بنفسه إلى قهوة المعلم «محروج» ليحاسب العمال بنفسه ويوزعهم على العمل. لكنه إن دخل على أتخن تخين في البلاد ينتفض له قائما يقدم التحية والاحترام، مرسال منه إلى قسم البوليس يفرج عن المحتجز في شخشيخة، كارت باسمه له إعتدره عند وكلاء النيابة ومديرية الأمن، تليفون منه إلى شخص تتحرك البضائع المتعثرة في جمارك المواني والمطارات وتنفرج كثير من الكروب عن كثير من الرجال هنا وهناك. ربما يعطيك ويعطينا فهي الدنيا إن أرادت تعطي قالت خذ عندك وما عليك إلا أن توسع لها، قيراط حظ ولا فدان شطارة يابوي اعطني حظا وارمني في البحر بدون عوم إنما الحاج «فرهود» مع ذلك شاطر قوي يابوي، مفتح وشهم

وخدع يضحك، راضع من بز أمه لا أحد يستطيع الوقوف قصاده، لكن كله بالطيبة والأخلاق وحسن المعاملة والأهم من هذا وذاك دعاء الوالدين

ازددت يقينا بأنني سأجد شغلا وراحة لدى الحاج «فرهود» فما كاد المساء يعمر جو المقهى مبكرا حتى أضيئت لمبات النيون كالعصي الممدودة على الحيطان وفي السقف. بدأت قوافل الأنفار تجيء فترمي بحلقاتها على الأرض بجوارها وتنحط على الكراسي بوجوه كالحة معفرة بالتراب مشققة، لكن أصواتهم الخشنة ملأت المقهى دفئا حيا وحنوا ياخال، عملت ربطة وربطة كأنها «فرح»، هم ولد بلدي يابوي يحل الفرح أيضا حلوا، الفرح في أعقابهم أسرع من طلقة رصاص النار

لقليفة كبيرة يابوي شعلت الدنيا، عراك ما تدري فرح ما تعرف، وأصل الحكاية أنهم يتحدثون فحسب، ينادون بعضهم بعضا يتفقون يتعاتبون يتواعدون. ثمة من يقوم فينضم إلى طابور صغير أمام حوض الحنفية ليسلم رأسه ويديه ورجليه للماء يتوضأ ويعود ماسحا أطرافه في أطراف ثوبه وما يلبث حتى يقيم الصلاة في ركن مفترشا منديله المحلاوي أو لاسته أو تلفيعته. المعلم «دحروج» يصيح في هذا ويشخط في ذاك بأعلى صوت، فيردون عليه بصوت أعلى مشوحين بأذرعهم السمحة المعروقة في الهواء وعروق رقابهم تنتفض حتى لتكاد تطرقع، وما الأمر في النهاية إلا مجرد زعيق

الطريف يابوي أن المعلم «دحروج» كما لاحظت كان في أشد السعادة بهذه الربطة. أقطع بأن زعيقه المتواصل هذا، وشخطه في كل من صادفه، إن هو إلا تعبير عن فرحته ياخال، فهؤلاء هم مصدر رزقه الوفير. يوم الجمعة من كل أسبوع يتولى هو محاسبة الحاج «فرهود رمضان» نيابة عنهم ليحتجز حقوقه طرفهم. هكذا قال لي قبل مجيئهم، وأخبرني أنه في الصبح يصنع فولا مدمسا شهيا لا نظير له في مصر القاهرة كلها ويقدم معه بصلا أخضر وجرجيرا ومخللا بالمجان للآكلين. وفي المساء يقدم وجبة عشاء قوامها عدس وبصل أخضر ومخلل. من جمعة لأخرى يجدد الحشوة بطبق من المسقعة أو الخضار الطبيخ. إنه يابوي يتحدى أن يجلس مخلوق أمام طعامه دون أن يفتح شهيته ويأكل أصابعه، وهو ينسى طبعا يابوي أن الذين يجيئون للأكل عنده يكونون في الأصل واقعين من الجوع. والجوع عموس كما قال سيدنا «عبد الرحيم القنائي» طيب الله ثراه وأرضاه

أحلف اليمين يابوي أن «دحروج» كان صادقا فيما قاله يسرح بعقلي كي أدب أنا الآخر مثلهم فأسلمه يومـيتي على دمة أكل، كله أوسطه في أوسطه. وهل أنا عبيط يابوي حتى أعطي الأمان لأبناء المدينة حتى ولو كانوا من أبناء الريف سابقا؟ صنف أصحاب المحلات الذين يبيعون لنا أكلا مطهوا جميعهم حرامية لا يكلفهم الطبق مليما ويبيعونه بخمسة وعشرين، مالي أنا والأكل المطهو؟ ابن دوات أنا يابوي؟ ما عيب الرغيفين والبصلات

مع طبق من الفول أشتريه أو من عربة جوالة معلوم لخدمته لو كان عند «دحروج» وأمثاله يقسمه على أربع أصابع ويسمى كل منها واحد؛ هذه الأكلة في الصبح ودمتم على ذلك حتى صباح اليوم التالي إذ أنني جئت إلى هنا كي أرسل الحوالة البريدية لأمي كل بضعة أيام لا لكي يحررها المعلم «دحروج» أو غيره من الدحاريج الأخرى بجميع أنواعها.. عبيط أنا يابوى؟!

صدق من سماه «دحروج»، إذ إنه تدحرج إلى قلبي شيئا فشيئا حتى تملكه وتمكن من الضرب في قلعة مخي المنيعة الصلبة العنيدة. عزمني على العشاء بالمجان، أي والله يابوى غير أنني لم أكن أظنه يقصد ذلك حقا في أول الأمر. ذلك أنني فوجئت بسيدة شابة من بنات الحارات الفاتنات تلبس فستانا أسود يظهر شدة بياضها الآسر، ويظهر جسمها محروطا على قالب مليء بالأبراج العالية والقباب تطير عليه كل أبراج الدماغ قبل الحمام. وآه ياحاج، حافية القدمين بكعبين كربالين من الفضة وسمانتي قدمين كشهدتين طائبتين، منتصبة الجذع بارتفاع صدرها الناهد مع ذراعيها وكتفيها تسند بيديها حلة كبيرة. ثمة من يتطوع ليحمل عنها الحلة قبل وصولها السلمة الأخيرة، وهي تصيح فيه بصوت كالغنج اللاهب «حاسب! حاسب أحسن دي سخنة». الكل يريد التطوع بسند الحلة للاحتكاك بامرأة ما أمكن، مداريا نواياه الخبيثة بطيبة مفتعلة في قولهم: «على مهلك يا أم حنفي! كيف حالك يا أم حنفي! وحشتينا يا أم حنفي» وهي لا تني ترد على كل

واحد بلهجة بين الجد والمزاح لكنها إلى الجد أميل بحدة، مما دلني على أنها في جوانيتها التي لا يعلمها إلا الله امرأة مجروحة هازلة إلى حد كبير يابوى وأنها تخشى ضياع هيبتها تماما بين أناس فتفقد بذلك لقمة عيشها. «يسعد مساك ياخويه! ماتشوفش وحش ياصنايا! ربنا يعطيكم الصحة والعافية ويقدركم على شقاكم!»

عرفت بالفهلوة يابوى أن «أم حنفي» هي التي تتولى طبخ العشوة لحساب المعلم «دحروج» في منزلها وتأتي بها إلى هنا في يوم معلوم. قلت لابد أنها تقوم أيضا بتدميس الفول عندها وتجيء في الصباح تملأ به «قدرته» النحاسية اللامعة. وقد صدق حدسي يابوى، وهمس لي ولد من ملدياتي بأن «أم حنفي» هي الساعد الأيمن - والأمين - للمعلم «دحروج» منذ سنين بعيدة مضت، وكل شيء يتم في منزلها الكائن في حارة سد ضيقة من حواري حلمية الزيتون، إذ كان زوجها بوابا لعمارة كبيرة واسعة مبنية في بواكير نشأة الزيتون. للعمارة منور كبير واسع تطل عليه أبواب ثلاثة من غرف البدروم كان صاحب العمارة يستخدمها مخزنا لبضائعه من زيوت طعام ومواد غذائية بجميع أنواعها إلى حبوب ومحاصيل وخمور وما شئت. لذا فقد لزم أن تكون غرفة البواب هي الباب الرابع المطل على فسحة هذا المنور الكبير الذي تسقط إليه الشمس والأمطار عابرة عشرة طوابق من الشبابيك الصغيرة وبسطات سلم الخدم الحلزوني الذي لا يستخدمه أحد. وقد خدم البواب - «أبو حنفي» لدى الزيات - صاحب هذه العمارة - مايزيد

عن عشرين عامـا حتى مات بفعل الشيخـوخة والمرض مخلفا «أم حنفي» وخمسة عيال زغب الحواصل هم «حنفي» وأربع بنات.

الولية صعيدية يابوي، محكومة، شابة لاتزال، لكن أكل العيش مر، والشاطر من يحلي مرارته، يحليها بالشقاء الزائد والتعب والعرق أمال يابوي، بدلا من التعريط في الشرف وتعريض النفس لسؤال اللئيم كل شيء في الدنيا قد يتضح أنه عيب إلا الشغل عداه العيب وسافر اشتغل يابوي واشتغل تدوب في حنكك مرارة الملح وتجد نفسك في نهر الحياة مرتويا بالعزة والكرامة والمهابة هذا ما صرت أقوله لنفسي يابوي مقتديا بهذه الولية العلبانة الجدعة «أم حنفي» التقطها المعلم «دحروج» - كما يزعم - نية أن يساعدها على المعايش ويوفر لها رزق وواقع الأمر يابوي - يقول ولد بلدي من حولي - أنه يستغلها أشنع استغلال يابوي، يتخذها خادمة تقوم وحدها بما يطلب من مجموعة عمال، خلاف استغلاله لمنزلها الذي هو عبارة عن غرفة واحدة تنام فيها بأطفالها تزاحمهم فيها أجولة الفول والعدس وبراميل الزيت ولولا أن سكان العمارة كلهم يتعاطفون معها لضايقوها

«أم حنفي» غابت ثم ظهرت ثانية في فراغ الباب تحمل صندوق كبيرا جدا، ما أن وضعناه على الأرض حتى تبينت فيه تلالا من الأطباق البلاستيك والألومنيوم الصغيرة، يتخللها أكوام من البصل الأحمر وصفيحة ملآنة بالباذنجان تفوح منه رائحة تقول لك كلني أنا وحدي في الثنو، نفس الكلمة التي يقولها لك

جسد «أم حنفي» بمجرد ما تراه، خاصة إذا طلع صوتها بالغنج الذي لا افتعال فيه. تحسسنا فمددنا أصابعنا خلسة لتخرج بتسبيرة من الباذنجان نلتهمها وأعدة ترقص. شخطة المعلم «دحروج» هي التي أوقفتنا عن التهام الباذنجان كله مرة ثالثة ظهرت «أم حنفي» تحمل طاولة عليها تلال من الخبز الساخن، تركتهما على رخامة النصبة وانصرفت تقدم المعلم «دحروج» وصار يتناول الأطباق فيملأها بالعدس مرشوشا على سطحها حفنات التقلية ولد بلدي يتزاحمون عليه، وكل من حصل على طبق مال نحو الصندوق فسحب بصلتين كبيرتين وانتحب باذنجانة كاملة ثم عرج على طاولة العيش فانتقى ثلاثة أو أربعة أرغفة خلال ذلك عادت «أم حنفي» بطاولات جديدة من الخبز عدة مرات متلاحقة حتى إذا ما انقلبت المقهى كلها إلى ناس منكفأة فوق الكراسي وعلى الأرض، والأيدي كلها متصلة بين أطباق عديدة من العدس والخبز وبين الأفواه، مكن شغال يقرقش البصل يطحن في لذة وانشغال عظيمين مهيبين يابوي كأنهم يؤدون أعظم وأقدس عمل في الوجود يابوي.

كنت الوحيد الذي لا يشترك في هذه العملية، أجلس وحدي في ركنتي هذا منذ بداية تفريق الأطباق، إذ أنني في الحق لم أكن أنوي أن أدفع «خمسة تعريفة» في واحد عدس كهذا فوق قرش للرغيفين الذين أحددهما لنفسي في الطقة الواحدة ثم أن كل ما معي من قروش لا يسمح لي بهذه الرفاهية، ربما لا يدفع ثمنا لهذه

العشوة وحدها فأنا لم أشتغل مثلهم بعد ولم يجر القرش في يدي. راقبت المعلم «دحروج» وهو ينظر خلفه في انتظار أن يتقدم منه أحد يطلب طبقا. شمل الجميع بنظرة تأكد من أنهم جميعا مندمجون في الأكل، مسح يديه في خرقة مبللة ثم جفف يديه في جوانب جلبابه البوبلين الكالح ذي الياقة والأساور المشمرة، مضى يجر ركبتيه نحو النصبة، ما أن وصلها حتى صب لنفسه كستبان شاي ثم أشعل سيجارة نفث دخانها في الهواء ناظرا هنا وها هنا، وقعت نظرته علي فيما أنا متكور في ركني أقوس بالأرض أشقى وأدعيني أحاول إبعاد عيني عن الآكلين بأي شكل إيقافا لريقي الجاري مع مضغهم، كسرت عيني هربا من نظرة المعلم «دحروج»، لكن بعد أن تأكدت من أنه رآني ياخال، تأكدت أيضا من أنه قد فوجئ وقد اندهش، نفرحت وارتبكت معا يابوي، خفت أن يحرجني في السؤال حتى يضطرني إلى الاعتراف أمام الذي يسوى والذي لا يسوى بأنني ليس معي نقود، ورحت أدبر كلاما أرد به إذا ما سألني: لماذا لا تتعشى؟ لكني أحسست به يرشف الكوبة كلها بسرعة، وبظله يخرج عن حدود النصبة يتجه إلى حلة العدس الكبيرة فيكشف غطاءها، يتناول طبقا من الصندوق، بالمغرفة الكبيرة راح يقلب العدس المتبقي في قعر الحلة ثم جعل يغرف ويضع في الطبق عدسا ثخينا يتصاعد منه الدخان ورائحة التقلية ثم يتناول طبقا آخر، رشقه بين أصابع نفس اليد ثم انتشل من الصفيحة أربع باذنجانات كبار سليمة وضعها في الطبق،

ووضع فوقها أربع بصلات كبيرات، وعرج على الطاولة فانتخب لا من الحجر يزيد عن ثماني أرغفة حلوة التقاطيع حمراء الخدود خفيفة الدم، أي والله يابوي هكذا بدت لي ساعتها، ما أدري إلا والمعلم «دحروج» مقبل نحوي بهذه الوليمة العظيمة، ثم تربع على الأرض مناولها، رص ما معه على الأرض، شور لي نحو الأرض قائلا: «إنزل يا أبو العم». وأنا ما كان مرادي أن يصل الأمر إلى هذه اللحظة لكن صوت الرجل كان حادا قاطعا وبسيطا في نفس الوقت ينذرني بالقطيعة إن تمنعت يعني على الحسة أن نشفت مخي ياخال، وعلام نشفان المخ يابوي! لكنني ربت على صدري قائلا: «كتر خيرك يا أبو العم! تشكر تشكر ألف هناء وشفاء!»، شخط بحدة كأنني عبده الذي يشتغل عنده ويأمر بقوة: «إنزل يابو العم قلت لك»، وأحسست أنه يعلق أبو العم هذه ويمطها بعيد كما لو كان يذكرني بأنه يتفضل علي بهذه اللفظة والمفروض أن يناديني بسواها، وتأهبت لأعصب وأعملها زعلة ولكنني ألهمت أن لا داعي لتنشيف المخ أكثر وإلا انكسر وتفتت، غير أنني ارتبكت يابوي، صرت أردد ألفاظا من قبيل «أصل أنا كنت... إلخ إلخ» في حين لا أقول شيئا مفيدا على وجه الرجل تصميم ينذر بفضيحة لو أنني سقت الدلع أكثر من هذا، كدت أميل على أذنه هامسا: «أصلي معييش فلوس!» لكنه كان أسرع مني، شور لي ناظرا في قلب عيني نظرة جادة: «إنزل إنزل! على حسابي!»، تململت قليلا ثم نزلت متربعا قصاده وفي نيتي أن أنفق بمضغ لقمة أو لقمتين إكراما للرجل، فما كدت أمد يدي وأسحب الرغيف

حتى لامس ركبتي بأصابعه علامة تنبيه. نظرت فيه باهتمام فنظر في باسماً يقول: «دي العزومة دي الليلة دي وبس! أوعك تاخد على كده الليلى أوله شرط آخره نور يا ابو العم». ثم ضحك وضحك الجميع فضحكت معهم مضطراً لكن ما كدت أشرع في تغميس اللقيمات بالعدس والباذنجان والبصل حتى فقدت الوعي والله يدوي، فصرت أطوح في فمي بلدة ماشقة والرجل ينظر لي من حين لحين مبتسماً كأنه يذكرني بتحديه السابق عن مذاق أكله. لا أذكر عدد الأرغفة التي مزقتها ورمينها وطوحتها في بلوعتي لكنني أذكر أن الرجل جاء بتل آخر من الأرغفة وأعاد ملء الطبق مرتين وهو يقول: «معلهش! غلطتي واستحق التربية! ما كان ميني! ما لدي دهاني فدعاني لأن أمطع أملك في تذوق طعامي مرة ثانية بدون نقود!»، وحين أخرج أمامي آخر بصلة وبه من آخر ما في الحلة صار يشمني قائلاً: «لا تصدقني يا أبو العم! لسوف تأكل عندي وقتما تشاء دفعت أو لم تدفع!»

ثم أنه اتجه إلى النصبة فملأ براص العمى ولقمه بالشاي وصف الأكواب متعدلة فيما هو يدحن بلدة فائقة. ثمة خاطر يجول في دماغي بأنني سأكون حتماً من زبائن الأكل عند المعلم «دحروج»، وأنني لا محالة تارك له يوميتي يجزر منها الحساب الذي يحدده هو وذمته!.. صار يصب الشاي في الأكواب ويريحها نعداً وكل واحد ينهض فيجيء ويأخذ كوباً ويمضي. قمت بدوري فأخذت كوباً فنظر لي قائلاً: «على حسابي برضه». قلت: «لا

على حسابي أنا والأكل أيضاً على حسابي! عزومة هذه الليلة باتت على حسابي يا أبو العم! ويبقى لي عندك عزومة!». إرتفعت أصوات الشغط فصنعت جواً لطيفاً. راح المعلم «دحروج» يفر في دفتر ممزق سحبه من تحت النصبة، بقلم جاف أخذ يدون حساب كل واحد منهم، ثم صاح تجاهي ويده على صفحة جديدة بيضاء: «اسمك ايه يا أبو العم؟». صحت قائلاً: «حسن ولد أبو ضب» كتبه، ولا أدري ماذا كتب أمامه من أرقام، لكنني في الحال فتحت دفتراً في دماغي وكتبت فيه ما أخذته اليوم بالمليم

إلا والحاج «مرهود رمضان» داخل علينا، حوله أربعة رجال أشداء وجهاء بعمائم صعيدية كبيرة وجلاليب من الصوف المعتبر وعباءات من الجوخ على أكتافهم. كانت شخصية الحاج «مرهود» أوضحهم، يتقدمهم، قصير القامة نوعاً، عريض الكتفين، ممتلئ الوجه بالدماء والعافية، غليظ الملامح، تخين الصوت أجشه، يرتدي مثلهم نفس الثياب ولكن العز والفخفخة تافحان عليه، ومن فتحات الثياب تتدفق النعمة في ملابس داخلية ثمينة، من نوع أنه يستحم ويحلق ذقنه كل بضع ساعات، وبيده العصا الأبنوس العوجاية

كل من معه تأففوا من الكراسي ونفضوها بأطراف ثيابهم إلا هو جلس على أقرب كرسي كيفما اتفق. فلما اندهشت أخبرني ولد بدي أنه على هذه الحال منذ ما يزيد على عشرين عاماً ولم يشأ

أن يغير عادته بعد أن أكرمه الله وصار من الأثرياء، بل فضل أن يظل يباشر عمله الأصلي في المقاولات البسيطة بنفسه، تاركا شركاته الكبيرة لموظفيه الكبار يديرونها بالطريقة التي يعلمونها تحت إشراف وحراسة أبنائه وهم أفندية كبار متعلمون.

ثمة رجال آخرون كانوا خارج المقهى بالمئات صاروا يتدفقون علينا، فبعضهم جعل يقبض أموالا كبيرة سيقضي بها مصالح عاجلة، وبعضهم يقبض أموالا صغيرة، والبعض الثالث يتلقى بعض الأوامر والتوصيات وينصرف. فوضح لي أن الرجال الأربعة الجالسين هم أربعة رؤساء كل واحد منهم مسئول عن حوالي مائتين أو ثلاثمائة نفر يعملون في عملية معينة في مكان ما تبع الحاج «فرهود». فلما لاحظت أن الزحام بدأ يخف ويتلاشى تقدمت من الحاج «فرهود» وقلت له: «اتمسى بالخير ياحاج» قال: «مسا النور. تحب تشتغل في إيه؟» قلت والبشر يطفح مني: «أنا أحب أن حضرتك تشوف لي شغلة على قدي!» نظر في متأملا ثم قال: «إنت كنت بتشتغل ايه قبل كده؟» قلت: «سماك.. وقهوجي». أعاد النظر في وزام مفكرا ثم قال: «أما السمك فلم نشتغل فيه بعد! وأما القهوة فأمر فيه نظر» قلت محسنا قلبه: «ربنا يخليك! ويزيدك من نعيمه». أعاد نظره في ثانية وقال: «أنت منين ياأبو العم؟» قلت بسرعة: «من العمايم قبلي! كوم سعيد. من ولد أبو صب! أعمامي المشايخ الكبراء! يمكن

... مع عنهم!» انبسط وجهه فجأة قال: «بقى أنت ولد أبو صب! دا ... مع أبو صب الكبير كان الفقي بتاعي ياولد! كنت تلميذا في ... وأنا طفل صغير! ووالله ما نفعني في الحياة حتى اليوم ... سوى ما تعلمته منه في ذلك الزمن! رحمه الله!» انفشخت بابوي على الآخر وكبرت قامتي أمام الخلق، ونظر هو إلى واحد بجواره وقال: «ياريس حمدون! خذه معك إلى المعسكر باكر! فإننا محتاجينه!»، ثم نظر لي قائلا: «باكر قبل طلعة الشمس تكون هنا ... منتظر الريس حمدون لتركب معه وتروح المعسكر الهايكستب!» ... قلبي من التوجس: «حاشتغل ايه في الهايكستب ياحاج؟» شوح قائلا: «بكرة سأريك ما تفعله» ثم حول نظرته عني مرددا ... حوله: «حد تاني عايز أي حاجة مني؟» فلما لم يتقدم أحد بحاجة نهض متكئا على العصا قائلا: «توكلنا على الله». فنهض الجميع فساروا خلفه وانصرفوا. فحل بالمقهى هدوء شديد شديد خفتت له الأضواء في اللمبات.

الثانية ـ سقف العرا!

شادر البطيخ كبير جدا يابوى، يشبه دوار أكبر عمدة فى البلاد كلها يتهامس ولد بلدى قائلين العجب هو ثروة كبيرة فى يد صاحبه الحاج «رفقى» الذى استولى على هذه المساحة الشاسعة بوضع اليد منذ سنين طويلة ثم أجرها من البلدية ثم آلت إليه ملكيتها فى النهاية بثمن بخس طلع عليه مصاريفا نثرية شادر البطيخ اسم محسب يابوى، والبطيخ كله لا يزيد عن كومة صغيرة مرصوصة فوق بعضها على باب الشادر. أما الشادر نفسه ـ الممتد على مساحة فدان أو أكثر، والمبنى بجدران طينية ومسقوف بمشمع الخيم ـ فإنه ملآن بعربات اليد الصغيرة مجرورة بأقفال فى صفوف طويلة من أول الشادر إلى آخره، وبقية من أرضه ملآنة بأجساد مرصوصة جوار بعضها، منهم المغطى بطانية جيش قديمة، والمغطى بحرام صوفى عتيق، والمغطى بجوال محرق، والمغطى بجلباب قديم متهرئ. أما الحاج «رفقى» نفسه فإنه ـ تحلف اليمين ـ لا يساوى تعريفة. كرش هرمى قاعد على الأرض، له ما يشبه رأس الإنسان، فتحة طوق جلبابه مفشوحة

وفتلة من الدوبارة المتينة مربوطة في عروة الصديرى وطرفها الآخر مربوط فى محفظة جلدية كبيرة جدا ومنتفخة في جيب الصديرى، وجهه كالبطيخة بالضبط ياىوى، لونه ـ تحلف اليمين ـ بين السواد والحصار، منتفخ العينين يملأ العماص جفونه

رحت وجئت من أمامه عدة مرات ومرادي أن أكشف عن زاوية بعيدة منه أرمى فيها جثتى سواد الليل دون أن أدفع شيئا. فعراء معراء وخلاء مخلاء ولا داعى إدن لخسارة قرشين كنت أظنه لا يلحظنى ياىوى، لكن اللعين شعر ـ وهو في مكانه ـ بملامسة جلدى لجدار الشادر المخفى عن نظره، إذ ما كدت أتقرفص مرتكنا للحائط كأني سأستريح برهة وجيزة حتى سمعت نحنحة بصوت عال وبنغمة ذات معنى. وما كدت أتمدد واضعا ذراعي تحت راسى حتى جاءنى صوته راعدا كصوت العواء المقبض «أنت ياجدع أنت! هى وكالة ولا إيه؟!» فهمت فى الحال جالسا. أظهرت نفسى مقبلا نحوه «مساالخير يا حاج رفقى» وضع كفه كالشدة فوق عينيه صاح مغير ود «مسا النور ياحويه! انت من اللى بيترموا تحت الجدران ولا إيه؟!» تبسمت رغما عنى قائلا «لا! أنا من رجالة الحاج فرهود! وراحل أعجبك! بس الزمن هو اللى قاسى!». إغتصب إبتسامة خشنة، قال «طب وماله! بس تيجى تمسى علينا الأول واحنا نشيلك على راسنا!» قلت «عاوز أبات للصبح!» قال «جوه ولا بره؟» قلت «جنبك هنا!». قال «مص

فرنك» قلت «والحج مانوش إكرمية؟» شوح قائلا «الحاج مدام نص «فرنك» دا حتى يبقى عيب!» ثم أشاح عنى كأنه أنهى المقابلة مددت له يدى بالقرشين و بغيظ يفريني، وقلت بنفسى صحيح أنها مصر أم العجائب! عشب وشعبا من يبيع لنا النوم فى عراء بقرشين! حار وتار في جثته

استرطت بقعة مجاورة له تماما وتمددت طاويا ذراعي تحت راسى وقلت له قبل أن أستغرق فى النوم «والنبى تصحيني بعد صلاة الفجر على طول!». قال «طيب». غفوت، ثم صحوت، ثم غفوت ثالثة، وكلما صحوت لاعتدل على الجنب الآخر رأيت صف «الأجساد الممددة بحو رى يصل إلى آخر جدار الشادر من كل ناحية

الثالثة.نهارك أبيض!

من شاهدني لحظة عشوة العدس بالأمس لا يشاهدني صباح اليوم، وقد اندمجت في الرجال حول قدرة الفول ورحت أصيح مثلهم بلهفة واستعجال. «شوية زيت حار هنا! بصلة يامعلم! بدنجانة تانية!». أكلت حتى امتلأت صحة وصرت بفعل الفول والبصل يابوى مستعدا لضرب الحديد بقبضتين.

تسلطنت أمام كوب الشاى الساخن وكان معى سيجارة مكى مليود قطعتها نصفين شبكت أحدهما فوق أذني وفرطت الأخر فى ورقة بافرة برمتها وأشعلتها وتأملت لون الدخان فرأيته ارتوازيا فى لون الصباح أبيض انقلب ياحال. كنت قاعدا على الرصيف خارج المقهى فى انتظار الريس «حمدون» وقعت عينى ـ سامحها الله ـ على نافذة بيت فى مواجهتى على الرصيف الآخر تشبه طاقة مستديرة مغطاة من الخارج بشبكة سلكية، وثمة وجه آدمى يحاول النظر من خلالها من الداخل. كانت الحائط من الخارج مبلولة بالرطوبة وفيها مواسير للمياه مما جعلنى أفطن إلى أن هذه الفتحة في حمام البيت يابوى. فأصابنى هياج كبير يابوى، وأنا ما

كان مرادى أن أنظر يابوى لكنه الشيطان قاتله الله، هو الذى أقامنى من قعدتى فعبرت الطريق إلى الرصيف وفي ظنى أن الذى يحاول النظر من النافذة من الداخل لابد أن تكون امرأة، لعلها «أم حنفى» أو من تشبهها، ولابد أيضا أنها تطلبنى لشىء أو ترغب فى مساعدة، وإلا مابقيت تواصل النظر هكذا يابوى ولابد كذلك أن الله جعلنى انتبه إليها يابوى لمصلحة لها أولى. ما أن وصلت إلى النافذة حتى توقفت مرتعبا وقلبي ينتفض. شببت على أطراف أصابعى، فتبينت الرأس المشعر واقفا لايزال خلف الشبكة السلكية ثم قفزت فى الهواء أمام النافذة ملقيا بصرى فى الغرفة فاصطدم بظلام دامس. مخ صعيدى يابوى صدق من أسماه. صممت على رؤية هذا الشخص والتأكد من أنه امرأة تناديني من خلف الحجاب لتتواعد معى على شىء ووعد النساء دائما بهيج ياخال.

فى قفزة عالية قلت للرأس الواقف خلف الشبكة. أنا خدام. فى قفزة ثانية قلت أأمرى وأنا أنفذ. قفزة ثالثة قلت: أى خدمة. فى قفزة رابعة سقط جسدى بين أيدى ثلاثة من الرجال الأشداء، كتفونى، وخد عندك من يوجعك زغد وتلطيش وتشليت وسب أم وكل ما لا قلبك يحبه إذا بهم مخبرون سريون، وإذا بهذه الغرفة هى غرفة الحجز التابعة لقسم الشرطة الذى يطل على الشارع الجانبى. أخذونى إلى القسم يابوى وأنا أصيح لله مابعيشى حتى تحطمت قواى قبل أن يبدأ النهار، فياله من نهار شؤم كانت بدايته نافذة السجن يابوى.

ولد أعمامى وبلدياتى لحونى، فصاروا يضحكون يصبحون فيما أنا واقف أمام الضابط والضرب شغال على قفاى. سألنى ما الذى كنت أفعله مع المساجين؟ فلم أعرف جوابا قط سوى قولى والله ما أعرف أنه سجن. الذى طلع على ساعتها قولى والله ما أعرف أنه سجن. إلا والريس «حمدون» مقبل علينا كالأسد يضحك. نهض له الضابط وسلم عليه باحترام كبير - طبعا يابوى. قال الريس «حمدون». عمل إيه الولد ده! عملت إيه ياولد؟» قال أحد المخبرين «ضبطناه يبط على منور الحجز ويتكلم مع المحتجزين. رحت أبكى وابكى، قلت «أبدا والله! أنا كنت العب شوية رياضة وعمال أتنطط» قال مخبر آخر وهو يركز بصره فى عينى: «يارجل اتق الله فى دينك! بطل كدب!». وضحك الريس «حمدون» وقال. «تتنطط ليه ياولد؟ إنت مجنون ولا إيه! داهية تسمك!». ثم لطشنى هو الآخر كفا تخينا على صدغى حتى اصطدم خاتم فى أصبعه بضرس فى فمى فصرخت فزعا. قال الضابط. «حضرتك تعرفه؟». قال الريس «حمدون» وهو يبدو عليه أنه تأثر من ضربى «أيوه دا من أنفارنا! دا ولد عبيط وغلبان وابن ناس طيبين! يلا قدامى ياولد!». نظرت إلى الضابط، فأشار لى بيده قائلا «غور من هنا واوع أشوفك تانى!». فاندفعت أجرى إلى المقهى، لأجد ما تبقى من الزملاء يضحكون ولكن فى شعور بالخوف والشفقة على حالى يابوى. فلما لحق بى الريس «حمدون» أشار قائلا «يلا يا ولد اركب انت وهو!».

كانت عربة اللورى واقفة تشبه عربات الجيش أو الشرطة الحالق الناطق غير أن هذه مكتوب عليها «مرفوده». ركبناها، وركب الريس «حمدون» بجوار السائق. مضت العربة فاخترقت «عين شمس» حتى وصلت إلى الهايكستب فانفتحت أمامها البوابة فمضت في الداخل مسافة طويلة حتى انتهت بنا إلى قرب محطة تسمى «المصحة» هي آخر محطة للقطار الذى يصل من باب الحديد إلى هذه المنطقة وجنود الجيش يخرجون من المعسكر إليها بعد مشي طويل ليأخذوا منها القطار إلى باب الحديد عند سفرهم في الإجازات، وبالطبع ينزلون فيها عند العودة.

توقفت العربة عند بنايات متقابلة بسقف جملون، وقيل انزلوا. فنزلنا، ساقنا الريس «حمدون» خلفه فمشينا بين هذه البنايات الطليلة وقلبي منقبض غاية الانقباض ياخال. لست والله أعلم السبب، ربما كان سبب الضرب الذى تلته اليوم على ريق الصباح، وربما التشاؤم من تمطيطي أمام غرفة السجن بكل سعادة وغشم، ربما يابوى كل هذا ولكن السبب الذى كنت أحسه قاطعا في نفسى هو منظر الرءوس المطلة من شبابيك هذه البنايات وفوقها الكاب الأحمر والأخضر والأزرق، ومنظر النجوم والصبابير اللامعة وهو مشهد يلقى الرعب في قلبي وحده ياخال، لست أحب مشاهدته أبدا، إذ أن أمي طول عمرها كانت تسعى لإعفائي من الجهادية بأى ثمن، ولولا رهافة قلبها لفعلت بي ما فعل غيرها بأبنائهم إذ يكسرون له أصبعا أو يختلقون في جسده

تشوها لكي يسقط في فرز النظارة ولا تأخذه الجهادية. لكن أمي طول عمرها ونحن كلنا طول عمرنا نكره هذه الكابات وهذه الصبابير والنجوم والشرائط كراهيتنا للإنجليز فكيف أجيء لهم بقدمي يابوى؟! ندمت والله على أنني وافقت بالأمس على المجيء إلى هنا، كان الواجب أن أقول لا، حينما جاءت سيرة المعسكر والهايكستب، لكنه قدر الله يابوى. وعلى كل حال فلابد أن أتصنع النوم حتى يفقد الريس «حمدون» أمله في شغلي فيستبعدني عن هذه الفرقة وبعدها يحلها الحلال يابوى. إنهم بالطبع يعرفون أنني أكلتها اليوم أزواجا وأفرادا، ولابد أنهم سيصدقونني إن زعمت المرض.

انفصلنا عن البنايات وصرنا نمشى في عراء الشمس مسافة طويلة إلى أن صادفتنا بنايات أخرى على صفين متقابلين لكنها متهدمة. عندها توقف الريس «حمدون» متوقفنا لحظتها فقط انتبهت إلى أن الأنفار كلهم يحملون معهم فئوسا وكوريكات ومقاطف وقصاعا وأشياء من هذه إلا محسوبك لا يحمل شيئا قلت. حلو، سوف يكتشف الريس «حمدون» هذا فيزجرني ويطردني فأتكل على الله إلى محطة «المصحة» عائدا إلى باب الحديد ومنها إلى باب الله. الريس «حمدون» شاهدني ولكنه لم يفعل شيئا، وقف يوزع الأنفار على الجدران المحرقة ليحولوها إلى هديم وأنقاض. ذلك أن هذه هي إدارة المطار الذى دمرته طائرات العدو، سوف نعيد بناءه من جديد على نسق آخر. هكذا قال الريس

«حمدون» كان ثمة عسكري كالحارس يجلس على مقربة من الهديم وبجواره راديو ماركة صوت العرب مفتوح عن آخره وصوت «محمد عبد المطلب» يصدح مغنيا «ياسايق الغليون عدي القنال عدي. وقبل ماتعدي خد منا وادي. ده اللي فحت بحر القنال جدي. عدي عدي. ياسايق الغليون» تلاشى صوته تحت صوت أم كلثوم يغني «صوت السلام هو اللي ساد واللي حكم» ثم تلاشت هي الأخرى ودخلت المجموعة تصدح بجعير يفزع القلوب حماسة. الله أكبر! الله أكبر!

قلت في نفسي «ما للإذاعة اليوم رائقة هكذا والكل فيها يدخن في بعضه يريد أن يغني فوق الآخر بالعافية» فمال على أذني قائلا «أما علمت»؟ قلت بلهفة «ماذا»؟ قال «هجم علينا ثلاث دول هي انجلترا وفرنسا واسرائيل» قلت «هجمت علينا كيف ياأبو العم؟». قال «على بور سعيد» ودار القتل في الشوارع والبيوت وطال الضرب مصر القاهرة من الجو وهذه نتيجة الضرب هم يهدمون ونحن نبني» صرخت فيه «لماذا فكرتني بالضرب ياشيخ» لعن الله الضرب والضاربين حتى يجربوا عذاب المضروبين» حينئذ لكزه زميله، فتركني وجرى بفأسه ومقطفه.

كل الأنفار توزعت وبدأ الشغل في الحال إلا أنا يابوي، فظللت في وقفتي منهضا أنتظر المصير. فلما اطمأن الريس «حمدون» إلى أن الشغل يمضي على بركة الله، استدار نحوي كأنه فوجيء بي بعدما أنسى صعبت عليه يابوي. تذكر الكف الذي زرعني به، فإذا

به يضع يده برفق شديد على كتفي ويربت، وإذا هو يستدرجني في مشي بجواره واضعا يده على كتفي كأنه ليصالحني. وإذا هو يقول «يعني أنت في الأصل قهوجي؟» استدركته مصححا «أقول إنني اشتغلت قهوجيا ذات يوم». قال مبتسما «يعني عندك فكرة». قلت «عندي وأفهم في هذه الصنعة جيدا». ربت على ظهري قائلا «عفوا. ناس بلدياتك هؤلاء طول النهار بودهم لو يشربوا الشاي. عندهم الشاي حجتهم في القرية خصوصا بعد الغداء. وهذا معسكر! ليس فيه كلام من هذا! ما رأيك لو جئت لك بوابور وعدة نصبت هنا نصبة شاي وقهوة جنب الأنفار وربنا يرزقك من ورائهم. أما المعسكر فليس لك شأن به فلن يتعرض لك أحد ما دمت أنت في منطقة بعيدة عن الخطر! هم أيضا يحبون شرب فنجان من القهوة وواحد شاي عند العصاري! سترزق من ورائهم أيضا».

لم أدر والله ياحاج إلا وأنا منهال على يدي الريس «حمدون» بالتقبيل والشكران. تفاءلت خيرا بهذه الشغلة التي لم تكن تخطر لي على بال، حيث لا يتحكم في أحد ولا يثقل كتفي حمل. قلت للريس «حمدون»:

ـ «هذه الشغلة هي عين المرام! ولكن أنا ما معي نقود الآن أشتري بها العدة والمونة فما يكون الرأي؟»..

قال: «أنا أعطيك سلفة تشتري بها لوازمك وعندما يكرمك الله ردها». وفي الحال نقدني خمسين حبيها بالتمام والكمال اهتز من

لمسها بدني كله ورقص قلبي ولولا خوفي من رهبة الريس «حمدون» وقوة الحاج «فرهود» لأخذتها وولّيت عائدا إلى الصعيد وبارك الله فيما رزق، إلا أنني كنت قد نويت لله خيرا واستقامة، ووجدتني أقول في غبطة «وهل أنا سأقدر على رد هذا المبلغ ياريس حمدون؟». شوح بخاتمه في وجهي قائلا «ياخي بكره تسقيني بيهم شاي وقهوة»

قلت: «أبدأ من غد». وكان قد مضى خطوات فاستدار صائحا «بل من الآن! فما وراءك اليوم؟» قلت «كيف يابو العم والمواصلات كلها» قاطعني «عربات العسكر طول النهار رائحة جائية إنزل في واحدة وارجع فيها أو غيرها المهم أن تشغل نارك اليوم وتسقينا شايا بعد الغداء إن الرزق يحب الخفية يابو حاله» ثم تركني ومضى. قلت والله لأفعلن.

تسلقت عربة جيش نازلة ألقت بي في الزيتون وأوصيت السائق أن يمر علي في قهوة «دحروج» ليشرب شايا ويأخذني فوافق وأوصاني بدوره أن أشتري له علبة سجائر ورطل موز فوافقت - المعلم «دحروج» فرح لما أخبرته الخبر، تمنى لي كل خير، زودني بالنصائح عن أسعار السوق ومن الشراء وعن أن أجود الوابورات البريموس وأجود الكوبات ياسين وأجود الشاي الست الفلاحة وأجود السكر الحرز يفرط معك ويحلي. كل ذلك فيما هو واقف معي على الباب. دعوت له بالستر ومضيت، قصدت

المحل الذي وصف لي مقره، إشتريت منه الأدوات كلها من إبرة الوابور حتى البراريض والملاعق، ومناجين بأطباقها للضباط والكابات المرينة بنسور ثقيلة. لف البائع لي كل ذلك لفة واحدة في صندوق كرتوني كبير متين مبطن بالقش والورق حملته فوق راسي ومضيت. قصدت دكانا آخر وصفه لي المعلم «دحروج» أيضا فاشتريت منه شايا وسكرا وبنا وينسون وحلبة وكراوية وكركديها وكبريتا. هو الآخر لف لي كل ذلك في رباط متين حملته في يدي ومضيت إلى مقهى المعلم «دحروج». مررت بقسم الشرطة فوجدتني أتلكأ في السير أكاد أزحف كأنني أكيد له أريه إلى أي حد أنا رجل محترم ومعي نقود تشتري أشياء كهذه. أمال يابوي. بجوار المقهى عثرت على كشك للسجائر فابتعت منه علبتين هليود صغيرتين واحدة لي والأخرى للعسكري سائق العربة. ولم يكن قد بقي من الثروة كلها سوى ورقة بعشرة جنيهات صحيحة صعب علي أن أكسرها بشراء الموز، والقروش المتبقية معي تكفي للنوم على باب الشادر وتذكرة قطار كوبري الليمون. إستدرت فوجدت العربة واقفة على مبعدة والعسكري جالس على باب المقهى يشرب الشاي في انتظاري. فلما رأى منظري بالشيلتين وحرصي على شراء السجائر شمط الكوب كله ونهض يحمل عني فأعطيته الصغيرة ومضيت بالكبيرة موضعناهما في أرض العربة واستدرت صائحا «الشاي عندي

يامعلم» رد قائلا «ماشي يابو العم» فانتشى فؤادي وفهمت مزية أن يكون لك دفتر حساب عند الناس وأن يستروا كرامتك أمام الناس في لحظات كهذه. ركب السائق وأدار المحرك. العربة عدة زعقات متوالية كأنها تنذرني بأن أتذكر شيئا أكون نسيته قبل الرحيل وكنت أرى الموز على مقربة مني لكنني اعتمدت على أن زعقات العربة استعجلتني فقفزت شاططا في الباب المجاور للسائق ودلفت جسما بجواره جاذبا الباب معي بنشوة أنستني ضلوعي وجع الشلاليت المؤلم. مؤخرتي ياحال كانت هي الأخرى تصيح بألم الشلاليت تقرصني كلما حاولت الجلوس. احتوتني شلته الكرسي فغفوت مدة جزء يسير من الثانية. أي والله يابوي، تحلف اليمين أني ما دريت بشيء البتة. إلا أني فتحت عيني فجأة فوجدت العربة ممتدة على الطريق الطوالي نحو المعسكر. ندب في أوصالي الانتعاش وفتحت عيني كأني صحوت بعد نوم طويل وها قد أصبح الصباح فإذا بي على غاية واضحة ومستقبل فيه العشم الكبير.

قال السائق «صبح النوم» قلت «صبح بدنك ياوحش!»، وأخرجت علبة السجائر فمددتها نحوه قائلا «دي هدية مني لك! ولكن لاتؤاخذني نسيت الموز! يظهر إنك استعجلتني! لكن!» قاطعني «لقد اشتريت»، وترك عجلة القيادة مسنودة بطرف إصبعه، وسحب سباطة موز نزع منها ثلاثة أصابع رماها في

حجري قائلا «قشر وكل!» ثم نزع ثلاثا أخرى رماها في حجري قائلا «وقشر لي» تراقصت من الفرح وقشرت له وقربت الأصابع من فمه فالتهم والتهم. وقشرت لنفسي والتهمت فنزل طعم الموز في جوفي بردا وسلاما يابوي، صرت أدعو للولد بالستر أشكر الله على عظيم نعمه وفضائله. فما انتهيت من مضغ الأصبع الثالث حتى كان الولد العفريت قد فك سلوفان علبة السجائر وفتحها ونزع منها سيجارتين قدم لي واحدة ووضع الأخرى بين شفتيه ثم أخرج مشط الكبريت فأشعل عودا صنع لشعلته بكفيه قبة تحميها من الهواء وقربه مني فأشعلت سيجارتي باستمتاع وأشعل لنفسه ورمى بقايا العود في الهواء بعد أن أطفأه ثم أخرج من جيب صدره شلنا ورقيا رماه في حجري قائلا «ثمن علبة السجائر» قلت صائحا «لا ياوحش هي هدية مني لك!»، ورددت الشلن لكنه ضغط على يدي بعنف قائلا «هدية إيه يا أبو العم! أنت رجل على باب الله تستحق المساعدة!»، وظل قابضا على قبضتي بأصابع حديدية حتى تألمت فصحت «خلاص! خلاص!»، وخلعت قبضتي من قبضته ووضعت الشلن في جيبي وقد أحسست نحوه بمشاعر الأخوة والصداقة. انفتح له قلبي يابوي، نسيت به كل وجع فيّ، رحت أواصل الدعاء له بالستر وهو يتابعني مرددا «آمين يارب العالمين إحنا وأنت والسامعين!»، حتى صرنا في قلب المعسكر.

استقبلني ولد بلدي بزيطة كبيرة، صار بعضهم يساعدني في فك اللفتين، والبعض يصنع لي مركزا على مبعدة قليلة، اذ جيء ببعض عروق الخشب المتخلفة عن الانقاض، وبعض الألواح العريضة الكثيرة المتراكمة هنا وهناك، وألواح الصاج وأعواد الحديد. من كل ذلك تشكل - في دقائق معدودة والله يابوي - كهف جميل راكع على الأرض فتح فكيه كالتمساح المحنط، فإن دخلته وجدته ممدودا، وكلما امتد ضاق مجاله حتى يلتقي سقفه بأرضه في اسماجة وضعت فيها صفائح المياه الحلوة للشغل، وأقمت طاولة عالية ووضعت الوابور في مكانه والأكواب في مكانها ولم يبق أمامنا سوى إشعال النار. صار الجميع في أشد الشوق لسماع صوت الوابور بل أن العساكر المراسلة جاءت من المباني البعيدة تسأل اذا ما كان الوقت قد حان لفنجان قهوة على الريحة بسرعة؟ غير أنني كنت كالأهبل في الزفة. سامح الله المعلم «دحروج» ذكرني بكل شيء الا شراء الجاز، إلا أن ولدا بحراويا من سلاح الاشارة غاب قليلا وعاد حاملا زمزمية كبيرة ملآنة بالجاز فاستبشرت خيرا إن هي إلا ثوان قليلة حتى صهلل الوابور وتوج رأسه بالبراص العال الكبير كعمامة الصعايدة لكن زرقاء. كانت أمتع لحظة لحظة أن رأيت الجميع مصطفا أمامي في الكهف وخارجه ممسكين بالاكواب المتلئة بلون غروب ذلك اليوم

وكنت أشرع في إطفاء الوابور وجمع العدة استعدادا لمغادرة المعسكر مع زملائي الأنفار حين جاءني الولد البحراوي وقال أنني يحق لي المبيت ها هنا حيث أنه قد جاء لي تصريح من القيادة حيث انهم رحبوا جميعا ببقائي في الليل. قلت فرجت. جيء لي بصندوق خشبي فارغ وكبير من صناديق الذخيرة قلبته على فمه جعلت من قعره سريرا. أما الأكل والشرب فميسور أمره في المعسكر وأما الطلبات الأخرى فطريقها معروف وسيارات المعسكر لا تكف عن الرواح والمجيء، ناهيك عن سيارات «مرهود»

الرابعة-بل القراقيش

طابت لى الحياة فى المعسكر ياأبوى، جرى القرش فى يدى والأشياء صارت معدن وآخر مل بالصلاة على الحبيب النبى. هات واحد شاى ياحسن. هات خمسة قهوه ياحسن. ياحسن ياحسن ياحسن صرت أشهر واحد فى الهايكستب كله. الضابط قد لا يعرف بعض جنوده لكنه يعرفنى حق المعرفة. صرت كل بضعة أيام أنزل إلى المدينة لأتسوق الموسة، وكل من أراد طلبا من سكان المعسكر يؤجله لحين نزولى. قرش من هنا على قرشين من هنا هنا تتجمد الجنيهات، فقبل أن يدبيها دفء ضلوعى أرحلها إلى البلد بحوالة بريدية لأمى.

فى ليلة من ذات الليالى كنت أتأهب لإنزال الباب والنوم، وصوت الوابور كان يون فى بطء شديد لهث يدعونى للتشطيب بسرعة، وكانت يدى قد وصلت بالفعل إلى المحبس لإفراغ الهواء حين دخل على عسكرى صعيدى يحمل لغة مستطيلة. إرتمى على الصندوق قائلا «واحد شاى ياحسن قبل ماتطفى». صببت له واحدا وبقي فى الكنكة قليل من الشاى، فلما رأيت الولد العسكرى

يلوح بورقة سلوفان فيها عدساية أفيون كبيرة أفرغت بقية الشاى فى كوبة صغيرة لى قائلا للولد «ليلتك فل» اقتسم الولد عدساية الأفيون معي وجلسنا نشرب الشاى. الساعة فى معصم الولد كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل. الولد العسكرى هذا يابوى، بلدياتى، تعرف علي منذ أول يوم، فكرنى بنفسه وفكرته بنفسى وبان أننا كنا أصحاب أيام طفولتنا فى كوم سعيد فى العنايم قبلى، لولا هذا ما كنت أمنت له. لم أكن أدقق معه فى شيء، مرة يحاسبنى وعشر مرات يشرب ويمشى، لكنه بين وقت وآخر يفاجئنى بهدايا لطيفة، حتة حشيش كبيرة، عدساية أفيون، علبة بولوبيف مبرشمة، علبة سجاير أجنبية، طبق من قطع اللحم المسلوق، أرغفة صابحة مع طبق أرز. ذلك أن هذا الولد يابوى، يشتغل فيما يسمونه بالكانتين، وفوق ذلك هو واد ملقط وابن زانية، مفتح على الآخر، جدع، خفيف الدم مفعص الوجه له عيون مثل عيون الكلب ساجية على الدوام وسنتان بارزتان وفك طويل وأذنان طويلتان مما يجعلنا نتصور أن أمه لابد أن تكون قد نمت بكلب وأنجبت منه هذا الولد واسمه «قرقوشه».

كان من الواضح أن الولد «قرقوشة» مسطول على الآخر. قلت له: «إنت جاى منين ياولد؟» سقط الخبث من عينيه إلى شفتيه متهدلتا بابتسامة مرتجفة. كأنه أراد أن يخلص من الحق عليه راح يدعبس فى جيب الأفرول ثم استخرج قطعة حشيش تصلح خمس ست سجائر بالراحة. أغلقت الباب علينا وأشعلت الوابور لكى

«على رائحة الجاز على رائحة الحشيش ورحنا ننسجم بشراهة مرة. عجلت عين «الواد قرقوشه» فكان لابد أن أسأله

- «إلا قل لى يا واد ياقرقوشه! إنت بتجيب الحشيش والأفيون ده منين؟»

قال ضاحكا

«من باب الله. بيجيبى لحد عندى من غير ما أدور عليه! معلمين الصعايدة يا أبا! قرايب صاحبك! كلهم معلمين كبار قوى! يحبوك قوى قوى!»

ندهشت والله يابوى، قلت له

- «وإنت إيه اللي ودّاك حداهم يا قرقوشه! ولا إيه اللى جابهم حداك؟ دول ناس شياطين ياوله! وانت راجل على باب الله ريّا!»

ضحك الولد الملعون وشد نفسا عميقا تبعه بشفطة شاى وقال ببساطة

- «هم كل يوم والتانى هنا! وهنا عسكر كتيرون يشتغلون عندهم مراسلة وحرسا وكل ما شئت من شغل!»

اندهشت أكثر يابوى، تلعبك دماغى وزغولت بطنى وصرت أقول

- «هم رتب فى الجيش!؟»

شوح بقبضته السوداء في وجهي غامرا بشمتيه

- «انت عدوك اهبل!؟ كل واحد من أقربائه هو الآخر له محاسيب! هي لعبة ولا إيه! كله يابني بتاعه هنا وهناك! أمشي وراه تكسب وتاكل الشهد».

تحلف اليمين يابوى أن صدرى تقارعت ضلوعه وكبست على أنفاسي يابوى. شيء إلهي قال لي أن الولد «قرقوشه» وراءه سر غير طبيعي، انه ولد واعر يابوى، ولا يصح أن تصدق من كلامه شعرة واحدة، وكل من يتلصق في كبير أو غيره من الكبار المهابين لابد أن يكون - من أساسه - نصابا محتالا، أو يكون منصوبا عليه مثل ولد بلدي هذا..

كنت لا أزال محيرا في هذه اللفة التي جاء بها معه ووضعها بجواره على الصندوق، إلى أن نهض واقفا وقال.

- «مش عايز أي حاجه من البلد؟ أنا مسافر في قطار الصحافة ثمانية وأربعين ساعة!»

قلت.

- «عايز سلامتك! سلم لنا على البلد وكل من تراه».

مضى نحو الباب يتلصص ويقول مشيرا إلى اللفة

- «حلي دي بقى هدية مني ليك!»

بسرعة أمتدت يدى وأمسكت باللفة فإذا هي بندقية آلي ملفوفة في خرقة. كدت أصرخ فيه يابوى، والذي دار في دماغي ساعتها أنني يجب أن أصرخ وألم عليه الدنيا تبرئة لنفسي، فربما يكون وراءه من يراقبه، لكنني تذكرت أنه بلدياتي وولد جدع وأنني لم أعمل معه إلا كل خير، صحت فيه بفحيح يمزق القلب

- «في عرضك ياقرقوشه! أنا راجل عندي عيال! عيلة كاملة في رقبتي! تريد تأكل عيشا فلا تودي بنا في داهية! الله لا يسيئك!».

ملعون ضحك ضحكا مكتوما وزغدني في صدري برفق قائلا «ماتبقاش صعيدي مقفول وعبيط!» ثم همس قائلا

- «خير. تعمل شو تلقي! الحق علي أنا أردت خدمتك! هذه يمكن أن تبيعها بمبلغ حلو! خمسين ستين جنيه! لست أطلب منك شيئا غير الكلمة الحلوة والعلاقة الطيبة!»

تحلف اليمين يابوى أنني صرت كالفار في المصيدة، أنظر هنا وهناك، أفتح الباب وأخرج وأعود، لأقول له

- «أعمل معروف يا ابن الناس! خذ هذه المصيبة وارحل عني بعيدا! الله الغني!»

إبن الكلب لم يهتز حتى وهو يراني أرتعش وأكاد أبكي. بل كان يبتسم والفجور يطل من بين أسنانه. ضغط بيده على كتفي حتى أقعدني في هدوء وراح يقول.

- «أنت تتفتش حين تخرج من البوابة؟»

قلت

ـ «لا يابو العم! أنا الوحيد الذى لا يفتشه أحد على البوابة!» إذا به يبتسم قائلا

ـ «إنهم يفتشوننى دائما ومع ذلك لابد أن أهرب كل مرة حتتين وثلاثة!»

قلت

ـ «كيف يا أبو العم؟»

قال

ـ «شطارة!»

قلت

ـ «عجايب والله! وكيف تتصرف فيها ياولد؟»

قال

ـ «ألف من يشترى فى الصعيد! وألف من يبيع!»

صرت والله أرتجف من جميع أنحاء جسمى، إلا وصوت أقدام مقبلة نحو كهفنا من بعيد، فانحلت كل مفاصلى وقلت جاءك الموت ياتارك الصلاة. لكن الولد اللعين قبض على كتفى قائلا

ـ «متخافش! متخافش! على كل حال خليها عندك لحين رجوعى من السفر! فسوف أقابل خطيبتى هذه المرة من بعيد لبعيد»

وإذا به يرفع الصندوق قليلا ويسربها تحته ويقوم ليفتح الباب ويمضى مخفيا إياى كومة من الثلج. أسائنى سمعت فى الخلاء من يؤدى التحية ويسلم على بعض الناس بأسمهم، وبقيت فى تكومى أنتظر من القادم أن يدخل فيحملنى ويفتشنى ويضع الحديد فى يدى. القادم كان أحد الضباط ومعه بعض الأمباشية. مساء الخير يابو علي. مساء النور يافندي. فقمت أشعلت الوابور صنعت لهم شايا وظللت أرتجف خلف النصبة إلى أن حيونى وانصرفوا.

مضى حوالى شهر يابوى والولد لا يريني خلقته. فقلت ولم لا أجرب هذه الشغلة. كنت نازلا للشراء لتموين فأخفيت البندقية تحت ملابسى فى الحزام من الجنب وخرجت من البوابة دون تفتيش، فأسرعت الخطى إلى محطة «المحطة»، وقبل ذلك بحوالى جمعة كنت فى المدينة فحططت رحلى إلى المعلم «شندويلى» فى مصر القديمة وفاتحته فى هذا الأمر سألته إن كان يستطيع تصريف بندقية؟ فقال. «هات بدل البندقية مئة! هات وأنا مقتدر عليه وخذ منى أربعين جنيها عن كل واحدة». سألته أين ستصرفها يامعلم شندويلى؟ فقال إنه على علاقة طيبة بتجار السمك الكبار كلهم ـ وكلهم من «كوم سمحت» نواحينا ـ ومعارك الثأر قائمة بين عائلاتهم لا تنتهى ولا يفرغ لها ضرب نار! غير أن المعلمين الكبار هنا متفقين مع بعضهم إتفاق شرف أن يتم التقتيل فى البلد وألا يتعرض أحد لأحد هنا، وما عليهم هنا إلا توريد الأسلحة لذويهم فى البلد!.

كنت أثق في المعلم «شندويلي»، فاتخذت طريقي إليه مباشرة، سلمته البندقية فدارها مني عنه، ثم انصرف وغاب حوالي نصف ساعة عاد بعدها قابضا على أربعين جنيها مطوية ووضعها في يدي فقلت «وإكراميتي؟»، نظر في وجهي مترددا ونزع من جيبه جنيهين وضعهما في يدي قائلا «مش خساره فيك' بس إنت هات كتير وخلي بالك من نفسك كويس!!

ثم.. ثم أنني استحليت اللعبة يابوي

الخامسة ـ حلاوة النار

كل بضعة أيام يجيء الولد «قرقوشة» منتفخ الصدر عليظ الحسين، فما أن يطمئن إلى أننا وحدنا حتى يرفع الصندوق ويسحب من عبه فردة أو فردتين وبعض علب ذخيرة يسربها تحت الصندوق ويجلس فوقه كأن شيئا لم يكن. أحيانا لا يجدني في الكهف فيفعل فعلته وينصرف ليعود ثانية يعطيني خبرا أنا أيضا تعودت كلما غبت عن الكهف وعدت أرفع الصندوق تلقائيا وأمرر يدي تحته بحثا عن الأمانة، وفي العادة أجد خيرا كثيرا تحلف اليمين يابوي أنني حتى هذه اللحظة لم أعرف سر الولد «قرقوشة» العجيب. لقد حيرني يابوي وبعثر دماغي في كل ناحية مما سجنت في فهمه وما استطعت أن أعيد لم دماغي ثانية إذا مرضنا ياخال أن هذا الولد يسعى لجمع النقود من وراء هذه الشغلة فما باله لا يطلب مني نقودا أبدا؟ كلما عزمت عليه بالنقود أبى كل الإباء! غير أنه كلما واتته فرصة السفر إلى بلده استلف مني شيئا، من خمسة جنيهات إلى عشرة، وفي العادة لا يردها ولا يفاتحني فيها كثيرا ما يسألني عن حجرين من الحشيش

أو بوستة أفيون فيحدس أدخر به شيئا منه. أتراه ولد عبيط ياحال؟ أم أنه يدبر لتوريطي في عملية كبيرة؟

عصيا عني أنهيت شغلي بهذا الأمر وركنته في منطقة خفية من دماغي. صرت أتسبب إلى الكسب، وفي كل مرة أقول لنفسي تكن هذه آخر مرة أتوب بعدها. لكن التوبة ليست سهلة أبدا يابوي، دائما تمنعها ظروف حرجة عن الوصول إلى صاحبها في مواعيد مبكرة، والإنسان في العادة يهرب من التوبة دون أن يدري. في كل مرة خرجت فيها بفردة جديدة وتوبة جديدة أفاجأ بأن سعر الفردة قد ارتفع من تلقاء نفسه عشرة جنيهات دفعة واحدة. ثم أنني رأيت عصا يابوي، صدق من قال أن من عاش يرى كثيرا ومن لف ودار يرى أكثر. كل معلم من الصعايدة ذوي العمائم الكبيرة الذين صرت أوصل لهم البنادق يدا بيد أخبروني أن لهم أولادا كثيرين مجندين في الجيش يمدونهم بكل أنواع الأسلحة والذخائر ويرزقون. هم طبعا يغرونني بالإكثار من جلب السلاح لهم حتى لا أخاف.

زهزهت لي الحياة يابوي حتى صرت قادرا على تحقيق كل مطلوب ومرغوب. إلى أن تغلب الوعد والمكتوب، وآن الأوان ليظهر الصحيح من المعطوب، والغالب من المغلوب، والأصيل من المقلوب. ولكن ربك - في النهاية - رب قلوب.

كان معي فردتان وأربع علب للذخيرة تشبه علب السكر القوالب، فوضعت هذه الأخيرة في خمسة ورقية من جعب

الكاملية ووضعت فوقها حلقات قديمة، أما الفردتان فحشرتهما بالطول تحت تكة السروال وداريتهما بالجلباب ومن فوقه لبست بالطو من بلاطي الجيش وخرجت كالعادة من البوابة دون تفتيش ومضيت مبسوط أربعة وعشرين قيراطا أغني وأصفر بملو بقي، حتى وصلت إلى محطة «المصحة»، فوجدتها كالعادة خالية. كنت سائرا فوق السكك بين القضبان أبغي الوصول إلى السلم الذي أصعد عليه إلى الرصيف، إذ أنني ما قدرت على القفز فوق الرصيف لأن الفردتين حالتا دون رفع ركبتي. فتمسكت لذلك يابوي ونويت الانتباه جيدا حتى لا أتكرفس وإلا برز بوز البندقية مرفوعا تحت الثياب. بقيت ماشيا ياحال وقد وقر في ذهني أنني خلقت هكذا مصلوب الحيل لا أتعوج ولا أنحني. ولكن سلم الرصيف قد لاح على بعد حركة كعب، ولاح معه ثلاثة من البوليس الحربي من ذوي الكاب الأحمر، وشخصية الضابط واضحة عليهم من نظافة السراويل والسترات وتساقها عليهم. صرت صفحا عنهم، مالي بهم؟ قدرت أنني ما رأيت شيئا يابوي. حدثتني نفسي بأنهم ربما يعرفونني إذ أنني مشهور لدى الكبير والصغير وعموم العسكر وحينئذ قد يستوقفونني ويسلمون علي. هذا ليس من مصلحتي في شيء فلعنون أبوهم وأبو سلامهم لست منه في عوز.

تملكت سلم الرصيف وجعلت أصعد في ثبات حتى تمكنت الرصيف بنفسه. وكانوا هم واقفين في انتظار القطار. فمددت البصر عنهم ناظرا نحو غرفة شباك التذاكر تحت السقف الجملون وأمامه الأرائك الخشبية الخضراء التي ما أن رأيتها حتى طب

قلبى حين تذكرت أننى لا يجب أن أجلس أو أحاول الجلوس أمام أحد لأن طرفى القردتين سيبرزان فوق صدرى لا محالة.

هى خطوة واحدة خطوتها يابوى، وإذا بواحد من الثلاثة الواقفين يتبعنى مناديا «خد ياولد» فانحط على قلبى جبل من الجرانيت الأسود ياخال، لكننى تجاهلته على اعتبار أننى لست ولدا. إذا به قد صار واقفا أمامى واضعا كفه على كتفى ناظرا فى عينى قائلا «إنت رايح فين؟». قلت بكل ثبات «رايح أركب القطار نازل البلد بإذن الله». قال «إنت مجند؟» قلت «لا! أنا حسن بتاع الشاى 'جوه المعسكر' تبع الحاج مرهود المقاول!» زام قائلا «وإيه اللى معاك ده؟». مددتها نحوه قائلا «خلقاتى» سوف أعطيها لامرأة تغسلها! وسوف أشترى المونة!» لكن يده - تستحق القطع - كانت أسرع من جوابى، إذ أمسكت بالجمعة فكأنه قبض على قلبى والله ياخال. فتحها وأمسك علب الذخيرة مطلقا من بين شفتيه صفيرا حادا محيفا «إضبطه»، ثم أشار إلى زميليه فلحقا بنا وهم من الاندهاش والفرح فى حال، صار يعرض عليهم العلب. ألهمنى الله بكلام صرت أردده

- «والله والله ياسعادة البيه أنا لاقيه فى السكة دلوقت ورايح أسلمه لإدارة المعسكر».

زغدنى فى صدرى.

- «إنت كداب! إنت لسه قايل إنك نازل البلد!»

ألهمنى الله من فضله وكرمه

«ياسعادة البيه أنت حضرتك شايفنى على رصيف القطار مش طالع على المعسكر! يعنى لازم أروح 'المعسكر الأول أسلم الأمانة دى وأرجع'».

مما دخل عليه هذا الكلام طبعا. ضحك.

- «انت تستغفلنا! أنت تركب من هنا كى تجد مقعدا خاليا وترجع مع القطار قبل هجمة العساكر على المقاعد!»

صار كل واحد منهم يسألنى سؤلا، كل سؤال يودى إلى داهية كبيرة. والذى طلع على لحظتها «أنا لقيته وكنت رايح أسلمه! غير كده ما أعرفش!» من أعطاك من لاماك من سواك من سحمك؟ ما أعرف ما أعرف ما أعرف

جاء القطار فدفعنى نحوه وقالوا اركب. قلت. حاضر، ورفعت قدمى لأصعد سلم القطار، فارتفع صدرى، فبرزت ماسورة البندقية تحت الثياب. فعبطوا فى، صاروا يتحسسون جسدى من كل ناحية وهم يصيحون فى استهوال. مهرب. مهرب! لم يكن فى القطار غيرنا فحمدت الله على انحصار الفضيحة. عادوا بى إلى المعسكر ظلوا يمشون بى بين البنايات وقتا طويلا، وعند كل بناية يتوقفون بى ويدخل واحد منهم فيغيب دقائق ويعود وفى أثره عشرات من الأشباح الصفراء برءوس حمراء وزرقاء تتسلل وتتبصص وتمصمص بالشفاه وتبصق فى اتجاهى. لحظتها لم يكن فى راسى غير أمى وأخوتى والمعلم شندويلى. ولم يرعبنى فى كل ذلك - صدقنى يابوى - سوى البنت «حنة»، وماذا ستقوله

حتى لو رآنى الآن فى هذه الوحلة الشنيعة والعيد بالله. المصفقات ترجمنى فى قفاى إلى أن سهل الكريم فدخلنا فى بناية فيها غرفتان متقابلتان، دخلوا بى إلى الغرفة التى على اليمين فقلت بشرة خير أن جاء كتابى بيمينى فلسوف ينجينى الكريم بإذن الله من هذا المنقلب. دفعوا بى فوق بسط وردى مستطيل تحفه قصارى الزرع من الجانبين استوقفونى. فرفعت وجهى عن الأرض فإذا أنا أمام مكتب يلمع كالذهب، والقطيفة الخضراء تكسو سطحه، وفوقه أوراق وتماثيل وطفايات وعلب سجائر، يجلس خلفه رجل عتل غليظ العنق كبير الوجه كرأس أبى الهول فيه الكثير من تقاطيعه، ثقيل الحاجبين أسودهما بارزهما، ومن تحتهما عينان لا تكفان عن التحديق فى وجهى، عريض الكتفين بارز الصدر كبوابة مسجد. كان يتكلم فى التليفون وكلما سمع كلمة بحلقت عيناه فى غيظ، فلما وضع السماعة واعتدل ظهر على وجهه أنه قد عرف كل شىء ولم يعد فى حاجة للسؤال عن أمرى. خرج صوته كالزئير تحلف اليمين يابوى أن جنينة حيوانات بحالها فى صوته المخيف «إيه حكايته بالظبط الولد ده؟». حكوا له ما حدث بالضبط، وباللى. خفت أن يظن هذا الدرفيل أن سكوتى إعتراف منى بالجريمة، فبكيت صائحا «يسعادة البيه! ربنا يخليك ويستر عرضك! أنا مظلوم». ما كنت أظن أن الدرفيل الجبلى يمكن أن يبتسم مثل خلق الله يابوى، أو تبدو عليه مثل هذه الطيبة التى كنت والله أن أصدقها وآكل الطعم الذى فيها، قال فى صوت لا أدرى من أين واتته كل هذه الحنية..

- «معلهش! معلهش. إذا كنت مظلوما تاخد حقك أربعة وعشرين قيراطا! على كل حال سيبك من الناس دول».

صفق بيديه نحو الواقفين يهشهم، فأدوا له التحية العسكرية واستداروا منصرفين، وبقيت وحدى أمام هذا الرجل التخين، الذى مد نوره نحوى فى ود كبير، فدهمنى صوت كالريح العاتية «خد سيجارة»، وأشعلها لى، وصاح «هات له واحد شاى». وقدم نحوى فلوسا كانت على مكتبه قائلا «مش محتاج فلوس؟ إطلب ميهمكش! ده احنا بلديات والواجب فوق كل اعتبار!». إنبريت أقول «متشكر ياسعادة البيه متشكر!» وجذبت نفسا، وحضر الشاى سمعت صوتا يقول «إجلس»، فانتبهت نظرا فى الرجل فإذا هو يقول بالفم المليان. «إجلس». فترددت كثيرا حتى سمعت الأمر للمرة الثالثة فجلست على طرف الكرسى خشية أن يتلوث جلده من وساخة ثوبى وخشية أن يلتصق ثوبى بالقروح المتهتكة المزمازة فى ظهرى من أثر الضرب بالكرباج والشلاليت والشوم، وتأوهت بإخال من شدة الوجع وانهمرت دموعى يا خال تحلف اليمين كأنها المطر، والرجل يطيب خاطرى ويقول. «إشرب الشاى! إشرب الشاى! قال متخافش! اللى ضربك حياخد عقابه!». وكنت منكسا وجهى فى الأرض لكننى كنت ألمح الناب الأزرق يفح سما فى صوته يؤلمنى يقول لى لا تنخدع يا حسن وإياك إياك. شربت كم شفطة من الشاى وكم نفس من السيجارة ومسحت دموعى بكم جلبابى، فأشعل هو الآخر سيجارة وقال لى:

ـ «به بقى لحكاية يابو علي؟ قول كل حاجة بكل صراحة! إنت شخصيـ ـيمش اي مسئوليه بس الجدعنه بقى تنورنا بالحقيقة!

ـ ، إنت جايب الحوف ده كله بيه؟ »

قلت

«أصل الحكاية ياسعادة البيه أني كنت مـاشيا قاصدا محطة المصـحـة لأركب منهـا إلى المدينة كي اشـتـرى التـموين وأعـود! فصادفتني هذه السة مـرمية في الأرض وأنا رحل عشيم' لم اعلم أن هده صناديق دخـيرة لأنهـا معلقـة بالشمع' وبعـدها بخطوات وجـدت الندقيـتين مـرميـتين على الأرض ويظهـر أن أحدا كـان سارقـهـا ورمى بها' قلت فـلأسلمها لادارة المعـسكر' ولهذا طلعت على الرصـيف الذي في طريق المـعسـكـر' فشـاء سـوء بحـتي أن يصـادفني البـكوات على الرصـيـف ولم ينتـظروا سـمـاع قـولي فقشوني وانهالوا على بالضرب وجـروني إلى هنا بالعامية وأنا ما استطيع أن أفتح فمي بكلمة!»

أشعل الرجل التخين عليونا من الغلايين الكثيرة المتكومة امامه، ولاح أنه لم يرض بالاسـتـمـاع لكلمـة واحدة مما قلت فكانني مـا تكلمت. مال نحوي وهبت رياح صوته تحاصرني من كل مكان:

ـ «شف ياولد! إذا قلت لي من الذي أعطاك هذه الاشياء فسوف أتركك! تعـود في الحال إلى بلدك وأهلك! سنكتـفي بحرمـانك من الشغل في المـعسكر! فاسمع كلامي أنا ولا يهـمك من اي أحد آخر غيري! فما أقوله لك أنا هو الذي ينفذ!»

قلت بصوتي الغرقان في البكاء

ـ «والله والله ياسعـادة البيه يعين أحاسب عليـه في نار جهنم أني أتكلم الصراحة ولا أعرف غير ما قلت!»

فأشعل الغليون ثانية ياخال، وأحمر وجهه، وهدر:

ـ «اذا قلت لي من أعطـاك هذه الاشيـاء لن تكـون متـهـمـا بل شاهدا! أفهمت؟!»

قلت

ـ «لا إله إلا الله مـحـمـد رسـول الله! وحق جلال البـاريء في سماه أني كـنت ماشيا قاصـدا المحطة فالتقيت هده البليـة فذهبت لأسلمها فالتقاني البكوات فأعدموني العافية وجاءوا بي إلى هنا!»

أشعل عليونه مرة ثالثة ياخال، نفث الدخان قال كأنني لم أتكلم من الأساس

ـ «إذا قلت لي مـن أعطاك هذه الاشـيـاءفـسـوف أتركك في الحال!»

بحلقت فيه بيأس، قلت.

ـ «يعني إذا قلت لك عليه تتركني حقا؟»

فاعـتدل ياخال وتضاعف حجمه وصـار وجهه كـتلة البيض ولمع الناب الأزرق في بياض عينيه الصفر، وصاح:

ـ «طبعا».

فأشرت إلى العسكرى الواقف أمامه وقلت

ـ «هذا العسكرى هو الذى أعطاها لى!»

انتفض الولد العسكرى صارخا ياولداه وكاد يقع من طوله وهتف فى فزع

ـ «أستغفر الله! أعوذ بالله! أعوذ بالله!»

حينئذ ـ وبكل هدوء بالغ ـ ضغط الرجل التخين على زر بجواره فدخل العسكرى السابق فابتدره قائلا

ـ «العروسة!»

فاختفى العسكرى فى الحال كأنه تلقى أمرا بالفرح يابوى، وعاد بعد برهة كأنه الفرح نفسه مصحبه اثنان يحملان العروسة تقدم العسكرى منى وطرح العروسة عنى وشرع يكتفنى فيها ويتعمد أن يجدبنى نحو مكان بعيد عن المكتب ثم أدار له يعطى ظهره للرجل التخين ويهمس فى أذنى

ـ «إياك أن تعترف على أحد حتى لو قطعوا جثتك للكلاب! إننا فى حالة حرب ولابد أن يضربوكما بالنار أنت ومن تعترف عليه!»

شكرته بنظرة عرفان، لست أملك غيرها. إنتهى من مهمة تكتيفى وتركنى للآخر.. وعينك ما تشوف إلا النور يابوى.. فين يوجعك ياحسن ياولد أبو ضب، الكرباج طويل اللسان يابوى وفيه

نار الله الموقدة يلتف حول ضلوعى يمزقها. يتعب الضارب وتتهد قواه فيتوقف متشربا أنفاسه فيبدأ الوجع الحقيقى ينتبه إليه جسدى، ويبدأ صوت الرجل التخين

ـ «إذا قلت لى من الذى أعطاك هذه الأشياء ترحم نفسك وتعتق من الضرب!»

فأرد عليه بنفس الكلام حتى تعبوا من ضربى يابوى ولم يبق فى جثتى جلد يتلقى لسع الكرباج فتزاحمت عليه ألسنة اللهب الحمراء فوق بعضها كالجبل والهضاب فوق جسدى. وسلم الرجل التخين بأنه لا فائدة ترجى من ورائى، فكتب كلاما كثيرا على ورق كثير وشوح به نحوى. فاندفع نفر من رجال أشداء يلبسون الأفرولات فدفعونى مقيدا، ألقوا بى فى عربة البوكس فورد، التى مضت تنهب الطريق نهبا حتى وصلت إلى مصر الجديدة وتوقفت عند منزل فخيم قيل لى أنه سراى النيابة. دخلناه، مشينا فى طرقات وصعدنا سلمات ومررنا على غرف، دخلنا غرفة فيها أفندى مهيب صغير الدماغ محلوق الشعر فى الوسط من رأسه كما الممثل «عماد حمدى» ولد الحلويات داك الذى يطلع فى الأفلام كان شبهه الخالق الناطق تقول هو بعينه. ظهر على وجهه انه مرتاح من منظرى يابوى، وانه ـ تقول ـ مستاء لما حل بى وبآدميتى فلما دفعونى أمامه بعنف كاد يكفئنى على وجهى صرخ فيهم «ماهذا؟» صحت باكيا «أنا أطلب الطبيب الشرعى ياسعادة البيه

انا واقع في عرضك ياسعادة البيه بعد شرحوني ولسوف اموت بعد هنيهة قليلة. ورفعت ثيابي فعريت جسدي وصرت ألف حول نفسي أمامه وكان القميص يابوى قد التصق بجروح انحلد فلما رفعته نزع سلخات من جروحي المتقيحة فصار منظر جسدي عجبا والله يابوى. ولما واجهت الرجل وجدته مبعدا رأسه إلى الناحية الاخرى لاويا ملامحه من التألم مداريا عينيه بكفيه. قادر ربنا ان يخرسني لو كنت كاذبا. كانت هذه أول مرة أشعر فيها ان لحكومة يمكن ان يكون لها قلب وهذا ما لم يكن يدور لي بخلد على الإطلاق يابو العم

بسرعة شديدة تناول الرجل الورق واشر عليه قائلا كلاما فهمت منه أنه لا يقبل أن يتسمعني فنظروا نحوه بغيظ أشد ثم دفعوني رعدا وتلطيش تحت انحزام. عادوا بي إلى العربة انطلق: عائدين إلى سراية أخرى في مصر الجديدة. فتلقاني شاب في مثل عمري وتفحصني جيدا وعلى وجهه كثير من الرعب الحقيقي. ثم امر بإحالتي إلى المستشفى العام واه وا ا ه يابوى مكثت في المستشفى العام أربعين يوما مدة أستمرار الحبس. ومن المستشفى رحلوني إلى السجن رهن الحبسة التي سأمثل فيها امام المحكمة بعد بضعة شهور

أيام الخلق ستة

الأولة ـ مدرسة الظلام المستنير!

من لم يدخل السجن لم يعرف من الحياة كلها الا نصفها يابوى صدقني والله، ولم يعرف من طبيعة الخلق الا ربعها بالكثير. أنت يابوى عدم المؤاخذة لا تعرف شيئ وان كنت لفاعا ودوارا وما أدراك. لكن تأكد يابوى من شيء هام جدا: اذا لا قدر الله دخلت السجن لسبب من الأسباب فانت داخل إلى المدرسة الحقيقية التي ربما ما يكتبها عليك، تفوز بكل ما ينتج عنه من معرفة. لكن اذا كان ذلك قدرا مقدورا عليك، فتفتح عينيك جيدا والا ضعت في الأقدام. تفتح عينيك تصبح أستاذ كبيرا في الحياة، وتحصن من الجنون، تسوق العداوة تصبح ممسحة للأقدام

أيام كانت مريرة ياخال ومليئة بالسواد والهم المقيم. كل المساجين تحيثهم ريرت الا العبد لله كالمقطوع من شجرة. كل المسجنين لديهم داخل الزنازين أشياء تخصهم الا أنا ليس يخصني شيء ولست أحتكم على شيء، فالنقود التي كانت معي صادرها عسكر الشرطة من أول علقة ولم اجرؤ على أن افوه

تكلفة مرادى أن اتكسب فى السجن مثلما يفعلون يابوى، فالسجن سوق أشد من أسواق الحرية، بائع الحشيش المسجون شغلته فى السجن بيع الحشيش أيضا، تاجر العملة كذلك، مزيفوها، لاعبو الثلاث ورقات، كل صاحب مهنة قبل الحبسة يشتغل فى الحبس شغلته. التموين يدخل السجن برضاء العسكر وفوق أنوفهم أحيانا ومن وراء مؤخراتهم أكثر الأحايين لكنهم جميعا مرزقون مسعدون ومع ذلك هم يشددون الحراسة على الآخر. عسكر من وبتاع من يابو العم؟ إياك تظن أن فى بلادنا بالذات شيئا يمكن أن يمنحه الحراس، أو عملا يمكن أن يخلصه المستوظفون بدون أن تعطيهم عن يد وأنت صاغر، وطالما أن جميع القائمين على الشغل فى بلادنا يمدون الأيدى حتى وإن لم يخرجوها من جيوبهم فإن ماتسمونه القانون والضمير والعدل مجرد كلام فى كلام يابوى. خذ هذا الكلام من أخيك حسن ولد أبى ضب وقلبه فى دماغك وأنت تعرف أنه حقيقى، اسأل نفسك هل استطعت طول عمرك أن تقضى أى مصلحة بدون أن تبرطل عليها وترشو؟ فماذا تفعل لو كنت مثلى سجينا وليس فى حوزتك أى شىء ترشو به السجان. معلمو السجن العتاة من فتوات المجرمين والنصابين تجار المخدرات والقوادين أولئك هم حكام السجن يابوى صدقنى والجميع خدم عندهم بالأجر، كل ما يريدون فعله يفعلونه والقرش هو الذى يتكلم. وأنا نفسى محتاج للقرش كى أبر به جسدى المنهوك فماذا أفعل يابوى؟

قلت: لا عليك يا ولد إن اشتغلت خادما لهؤلاء الحكام الفتوات مع الحاكم الفعلى يابوى إن كنت ضعيفا مثلى فى موقف ضعف، ولـه كانت أحلى فكرة. الفتوة جالس فى مكانه وأنا أغسل له ثيابه أطبخ أنظف الزنزانة أسقيه الحشيش أقضى له الطلبات، وما المانع ياحال، اذا كان من هم أفضل منى ممن علمهم أهلهم فى كبريات المدارس وعالى المعاهد يخدمونهم بأموال كثيرة فلا ضير عن أن خدمتهم بأكلى وأصبح فى حمايتهم. وهكذا ولعت على المعلم «طريشه»..

تاجر حشيش كبير قوى يابوى، يخرج من الحبس الاحتياطى ليعود إليه كل بضع سنوات. تجارته شغالة فى حى الباطنية من وراء الجامع الأزهر، كالعادة لم تتعطل ساعة واحدة، تموين شربه يجىء اليه كل يوم فى الحبس فى عامود الأكل الساخن يفتحه يابوى فتجد الحمر والعمر والخضار المطبوخ والأرز المفلفل والكنافة والمهلبية، كل يوم والله يابوى تحلف اليمين كأنه فى المصيف لا ينقصه إلا أن يجىء البحر تحت قدميه مسافرا من رأس البر، فى أيام الزيارات الرسمية تجىء السلة ملآنة بما لذ وطاب من فواكه وسجائر وحشيش وأفيون، كل ما تبحث عنه خارج الحبس فلا تجده بأى ثمن تجده فى الحبس بأقل ثمن. هذا بالطبع يتكلف تكلفة كبيرة يابوى تصل إلى مئات الجنيهات كل يوم والحدق يفهم.

قل أن هذا الرجل المخدوع أعجبني، أحببته والله حتى لكل رجل يكسر أنف الحكومة ويذلها بأي شكل. إنه يشفي غليلي وينتقم لي يابوي. قلت: لابد أن أكتبه على الآخر فالحشيش لا يسلي ولا يكيف. حثت بكوز صفيح كان في الأصل علبة عصير وحثت طباية العيش الساخن وهي نصف بـ... ففتتها ثانية مضيفا إليها قليلا من التراب صنعت منها خمس حجارة من حجارة الجوزة وبوصتين قصيرتين تركتها حتى نشفت تصلبت صارت لو حطها في جبهة رجل تنطحه. وكنت أسرع بتفا من قطن المراتب وحشيات الكراسي أصنع منها أشرطة مبرومة أغمسها في الجاز ثم أخفيه في مكان خفي من الزنزانة مع غيرها من الممنوعات الصغيرة الحجم، أما الممنوعات الخطرة كالحشيش والأفيون والنقود الكبيرة التي يبيع بها المعلم حشيشه في السجن فكنت أن محزمها، أبرم ورق النقود مع الأشياء في حوابير مدكوكة في بعضها جيدا وملفوفة ببلاستيك الأكياس الناعم الأملس حتى إذا ما لبستها في مؤخرتي انسابت بسهولة إلى الداخل وإن حرقتها ترفلطت خارجة مثل رقة، كنت ألبس أكثر من حابور، ثلاث أو أربع أدوار فوق بعضها وأكون عارفا بأن الحشيش في الحابور الأخير ليسهل إفلاته كلما احتجنا لتعمير الدماغ، إذ نفرك السجائر أو الدخان المعسل فوق حجر الجوزة ونشعل الشريط ونمرره فوق الدخان الممزوج بالحشيش ونشفط بمزاج كأننا نشرب على أحسن جوزة لدرجة أن المعلم «طريشه» نوى أن يأخذ هذه العدة معه عند خروجه من الحبس

بهذه الطريقة وحدها يابوي استطعت أن أمكث في الحبس الاحتياطي كل هذه الشهور، وأما كل تصبيحة شهور أمثل أمام منصة المحكمة غاطس في القفص الحديد من باكورة الصباح حتى حر الحسبة إذ يؤشر القاضي على أوراقي قائلا: يعود كما كان، فأعود كما كنت يابوي ولا أحد يسأل في صحة سلامتي والمعلم «طريشه» يصبرني قائلا إن الله معك، ويفهمني أنه حين خروجه من الحبس وخروجي بإذن الله سوف يأخذني لأشتغل عنده نفس هذه الشغلة التي أشتغلها له في الحبس. إلى أن جاءت إحدى الجلسات ذات يوم فمثلت أمام القاضي حتى انتهت الجلسة فعدوا علي فدخلت بغرفة التي يدخلها القضاة فور إنهاء الجلسة كالخائفين المذعورين من أهل ... ... أمام ثلاثة من الأفندية كل منهم يكفي لتخويف بلد بحالها وكل منهم راح ينظر في عيني يقلبني من فوق لتحت فـ... الجالس في وسطهم وقد ظهرت عليه الطيبة «يا ولد أنت» ... «نعم يا سعادة البيه» قال: «أنت لقيت هذا السلاح وكنت رايح تسلمه مش كده؟». صحت على الفور قائلا: «مضبوط يا سعادة البيه أنا لقيت هذا السلاح وكنت رايح أسلمه». فظهر الانتصار على وجهه وتراجع منحنيا للحائط صائحا في الكاتب الجالس بجواره: «اكتب. لقيت السلاح ـ وكنت ـ رايح أسلمه»، وضغط على كلمة كنت ضغطا طويلا مضغوطا ألقى به الرعب في قلبي فلم أستطيع فتح فمي بكلمة. وبدأ به يطوي أوراقه قائلا: «يعود كما كان». فعدت كما كنت يابوي وقد أيقنت أنني مكتوب لي لقمة عيش طويلة الأمد في الحبس،

والمكتوب ما منه مهروب. يوم ذاك جاء المحابيس يزورون المعلم «طريشه» في زنزانته فتكلموا جميعا في موضوعي، إنهم فقهاء في القانون يابوي أحسن من القضاة والمحامين يابوي بل هم أذكى من واضع القانون نفسه ليتهم ما تكلموا يابوي، لقد كسحوني، كسروا مقاديفي كلها، أفتوا كلهم أن عقابي في هذه القضية لن يقل عن خمس سنوات، نعم يابوي خمس سنوات هي براءتي في هذه القضية كما يقولون أما حكمها الحقيقي فالعياذ بالله منه

الثانية ـ زائر الفرج

لكنها الدنيا يابوي أحوالها عجب في عجب!..

في ذات ليلة كنا جالسين كالعادة نشوف مزاج المعلم إلا وصوت الأقدام يقترب من الزنزانة. فانتبهنا، فما كدنا نشعر بالمفتاح يوضع في قفل الباب حتى دارينا كل شيء بكل سرعة وتطرقنا على الأرض كأن شيئا لم يكن. ما إن انفتح الباب حتى اندفع نحونا شاب أشقر الشعر أبيض الوجه مستطيل طويل القامة يبدو أنه ابن ناس وابن مدارس ومن الواضح أنه لم يتعود على الإهانة. انغلق باب الزنزانة في الحال فبقي الشاب واقفا في منتصف الزنزانة كي تتعود عيناه على محتوياتها، ثم استدار نحونا متطوحا كالسكران المجهد قائلا «مساء الخير»، ثم ارتمى على الأرض متربعا بجوارنا، فكشفنا عن العدة من جديد وشرعنا نشوف مزاجنا بعد هذه الخضة الجامدة. وكنت مترددا في الكشف عن العدة خوفا أن يكون ضيفنا هذا من المباحث المدسوسين علينا وعلى أنا بالذات، لكن المعلم «طريشة» قرأ في وجه الشاب أنه متهم بالفعل في قضية وليس يمثل دورا، ثم إنه

راح يتابعني في انبهار شديد ولم يمتنع عن الشرب حين ناولته البوصة بل أمسكها بحرفنة واشتياق.

حجر فالثاني فالثالث فالعاشر أنهى علينا الشاب حكايته من طقطق لسلامو عليكم. اسمه «وائل عثمان» وشغلته وبـ لبعض - إمسك راسك يابوى - وكيل نيابة، وتهمته تزوير في أوراق رسمية خاصة بجوازات السفر وهو في الحقيقة مظلوم فيها ولسوف تنكشف براءته بسرعة. هو بالفعل طيب وبريء. هكذا قال المعلم «طريشة» من أول ما بدأ الشاب يحكي. والمعلم «طريشة» لا يخطئ النظر أبدا. إنه يعرف ابن الناس البريء من المجرم من كلامه سلوكه طريقة جلوسه نومه أكله شربه. كان «وائل عثمان» يظل طول الليل يفكر في قضيته وفي القانون والسيجارة الأجنبية - اليس ابن ناس؟ - مشتعلة بين أصبعيه على الدوام. الزيارات تجيء له بشكل متواصل فيها نصيب الأكل يفرده أمامنا كله. لقد أحبه المعلم «طريشة» كما أحببته وصرنا مشغولين بقضيته أكثر من شغلنا بقضيتنا. لكنه ذات ليلة شرب معنا حجارة كثيرة وبدت عليه علائم الانبساط فراح يستمع إلى حكايتي بشغف، كاملة هذه المرة بعد أن كان يستمع إليها متقطعة صغيرة. فلما أنهيت كلامي ضحك من كثرة السرور وخبطني بكفه على كتفي قائلا والإشراق كله في وجهه: «انت قضيتك سهلة وبراءة مئة في المائة». قلت أنا والمعلم «طريشة» في نفس واحد: «كيف

ياراجل؟». قال: «وأنت في المعسكر! هل كانوا يفتشونك في الدخول وفي الخروج؟». قلت: «لا يابوى! أنا لم يكونوا يفتشوني لأنهم عرفوني ووثقوا فيّ». قال: «أنت لا تقل هذا! إذ أن المفروض أنهم لابد أن يفتشوك وأنت خارج من المعسكر». قلت فرحا: «نعم نعم». قال منشرحا بسرعة: «خلاص! انتهت القضية». قلت: «كيف ياراجل؟». قال: «إنهم فتشوك عند خروجك من البوابة! وهذا معناه أنك لم تسرق سلاحا من المعسكر! إذ لو أنك سرقته لضبطوه في البوابة عند تفتيشك! ومعنى هذا أنك لقيت هذا السلاح في الطريق».

تحلف اليمين يابوى أن هذه الكلمة نورت في دماغي مثل الكلوب في الفرح. قلت: «والله إنها فكرة كبيرة يا بوى. من أين جئت بها يا ابن الناس الطيبين!». قال باسما: «تراك تستطيع أن تشرح هذا للقاضي؟». قلت مرتعشا بالفرحة المذهلة: «ربنا معي». قال: «معك محام؟». قلت: «لا والله يابو العم! محامي هو الله!». قال كأنه يسرح بخيالي: «لا عليك! إن المحكمة ستنتدب لك محام يدافع عنك بالمجان! وسأكتب لك مذكرة قانونية تعطيها للمحامي أول ما تراه». قلت وأنا في غاية العجب: «الله يكرمك ويوقف لك أولاد الحلال! الله يفتحها في وجهك دنيا وآخرة. الله لا يوقعك في ضيقة ويفرج عنك ما أنت فيه!». فصار يربت على ظهري في حنان وصرت أبكي في غزارة.

«وائل عثمان» إبن أصل صحيح يابوى اللهم زد وبارك. ظل أسبوعا بحاله يطلب ورقا أبيضا وأقلاما وكتبا معينها يحدد لزواره أماكنها في دواليب بيته، وأسبوعا بحاله يكتب في هذه المذكرة كل يوم يكتب صفحة، إلى أن حان موعد الجلسة فأخذت هذه الأوراق معي إلى المحكمة، ووقفت في القفص الحديدى إلى أن نودى اسمي فصحت كالموج قائلا «أنا أطلب المحامي الذى تقدمه المحكمة للدفاع عني من فضلها وكرمها علىّ» - وكان «وائل» قد لقنني هذه الصيحة - فانسلخ عن مقاعد المحامين رجل عجوز تبدو الطيبة على وجهه، وتقدم مني قائلا أنه محامٍ، فدفعت إليه بالورقات فذهب يقرأ فيها طالبا إرجاء القضية حتى آخر الجلسة، فاستجابت له المحكمة، فجلس منخرطا في القراءة باهتمام وتقرفصت داخل القفص أتابعه بقلب واجف وهو يقلب الصفحات واحدة بعد أخرى حتى أتمها ورفع وجهه عنها وبدا متحمسا للكلام. ونودى اسمي من جديد فانبرى المحامي يدافع عني بكلام من دماغه يشبه الكلام الذى يقوله «وائل» بالضبط وقد أكرمه الله من أجلي فانطلق لسانه في كل واد وقال كلاما كبيرا يابوى رقص له قلبي من الطرب، شرح للمحكمة حالي وغلبي وطيبتي واستحالة أن أكون ذلك المجرم الذى يتراءى للمحكمة الموقرة. وفي النهاية يابوى لم أصدق نفسي وأنا أسمع صوت الحكم على: سنة مع الشغل! لم أصدق إلا بعد أن بارك لي الحاجب والمحامي فرفعت ذراعي صائحا: يحيا العدل!.

الثالثة. فولة في قلب غولة

حاجة تهوس يابوى، الدنيا أمورها عجيبة ولها في كل يوم تصانيف من تصاريف لا تخطر للبني آدم على بال. أنا مثلا يابوى خرجت من الحبس يامولاى كما خلقتني يارب تررقني، لا قرش ولا عشرة، الثوب الكشمير والآخر البوبلين والقميص والسروال تسلمتها من عهدة الحبس فلبستها ومضيت في شوارع مصر المحروسة أتنسم عبير الحرية أتمنى أن أكون في عشرات الأماكن في وقت واحد وأرى عشرات الناس في لحظة واحدة. كنت جائعا فشبعت وتعبا فاسترحت ومريضا فشفيت كل ذلك من هواء الشارع فحسب، أي والله يابوى، وبالأمارة كان يخيل إلى أن كل من يلقاني يجب أن يقف ليسلم على وأسلم عليه في اشتياق ولست أفهم من أين جاءني أن كل أهل المدينة كانوا على علم بمجيئي وأنهم تبعا لذلك لابد أن يفاجئوا من رؤيتي في الخلاء طليقا. إن هو إلا إحساس عجيب قاتله الله يابوى، إحساس بأنني قد صرت مخصوما ببصمة السجن حتى وإن صرت حرا

غير أنني ما لبثت حتى جعت وصرت هفتانا أتطوح في مشيتي كحيي مائة امخلوع من الأرض تلعب به الرياح مشحها شبعت من اللف في شوارع المدينة وحواريها التي كانت أوحشتني وفي النهاية صرت أتمنى رقعة من الأرض أتوسد فيها ذراعي وأسلم روحي للكريم الذي لا يغفل ولا ينام، حيث لا يصحبني بالأمر سجان ولا يتآمر على جاويش أو خفير أو ديدبان. لكن أين هذه الرقعة يابوي؟ هذا حلم كبير جدا يابوي في هذا البلد لا يتحقق مثل هذا الحلم، إنه لا يتحقق إلا فوق مصطبة دارنا في بلدتنا حيث أمي وعين الله ساهرة

«الرجل تدب مطرح ما تحب» هذا مثل من الأمثال شهدت به أرحل البشر على مدى الأرض ياخال الذين قبلك قالوا وقولهم حق مدون في صحائف الأيام يابوي. أنا مثلا، ما الذي عاد بي إلى حواري مصر القديمة رغم أنني لاقيت فيها الهوان وشربت منها كاسات الذل والمرار. المؤكد يابوي أنني لي فيها صلع كبير هو المعلم «شندويلي» أحب أن أراه ويراني، ولي فيها أيام حلوة وليالي أنس وإن كانت قليلة فإنها لا تغيب عن البال أبدا

أمر عجيب والله ياخال، لقد كنت مقبلا على مصر القديمة وكلي سرور وابتهاج كأنني في سكة الرواح إلى بلدي وأهلي ففي أول النهار كنت أسير بلا هدف أترك الحواري ترفعني إلى الشوارع والشوارع تدلقني في الميادين والميادين تدهورني وقتا تشكني بعده في اتجاه غير مقصود. أما مصر القديمة فإنني

قصدتها قصدا دون أن أدري وتوسعت طريقها حتى أشرفت عليها قبيل العصر بقليل. فمالي كلما اقتربت منها ودخلت في عمق حواريها ينقبض قلبي كأن يد مارد شيطان تقعصه..

والله يابوي، أنا أقول لك السبب ولكن، لا داعي، فضلك من هذا السبب فربما أكون كاذبا فيه، فليس يعلم بسر القلوب غيره سبحانه وتعالى. إنما الذي أنا متأكد منه ياخال أن حواري مصر القديمة وشوارعها راحت تلقي في وجهي بالليالي السوداء بكالحة جماعات وفرادى كلما أوغلت في دروبها طلعت على سود ليالي تفح في شحوب «مساء تذكرني بنفسها يابوي تتعرف على بلاط الأحجار المرمية على نواصي الحارات تهب واقفة وتقبل نحوي مبتسمة ومعانقة بالأحضان تقول لي أيش حالك يا حسن ليس على وجهي سوى ابتسامة أشعر أنها جفت من طول ما ومات لليالي السود الكالحة مذكرا إياها في رقة بأنني هو، نعم هو، ذلك الذي أحبك بمآسيك وبلاويك وفضائحك وشقاواتك العديدة المصيبة ياخال أن ليلة من كل هذه الليالي التي تعرفت عليها وتعرفت على بين حواري مصر القديمة وشوارعها لم تتكرم وتدعوني للبقاء في حجرها حتى الصباح يابوي، لم ينطق صوت واحد يقول تفضل ياحسن على العشاء أو حتى على شرب الشاي أو حتى تفضل ولو على سبيل برو العتب. رضينا بالغلب ولكن الغلب لا يرضى؟!

قلت والله لا أرضى بدل أبدا، ومضيت لا ألوى على شىء حتى خلفت مصر القديمة وراء ظهرى وصرت فى إسطبل عنتر. تذكرت فجأة أننى ما مررت على المعلم «شندويلى» وكان الواجب أن أمر يابوى فالمعلم «شندويلى» كله واجب، وهو القلب الحنون الذى كنت أصمى عنده غدوة كبيرة ونومة خلية البال هنية لكنه المخ الصعيدى يابوى، تربس تربسة شديدة ولم يشأ أن أعود كل الطريق الذى مشيته. يحيل إلى يابوى أننى صعبت على نفسى أن يرانى وقشف السجن على وجهى وكل جسدى وعلى لسانى. ثم طرأ الخاطر الكبير على دماغى يابوى قائلا: وما الداعى ياأبا على أن يعرف المعلم «شندويلى» أنك كنت فى السجن أصلا، لو علم ربما يستقلك فى نظره ولا يعتمد عليك فى سر، وقد يتسرب الخبر منه فيعلم به ولد بلدى وتكون الفضيحة فى بلدتنا. قلت: ياما أنت كريم يارب، ومضيت أخترق شوارع اسطبل عنتر.

فى اسطبل عنتر مقهى صغير خفيف الدم يقع على ناصية صغيرة لكنها بارزة، صاحبها يرص كراسيه القش المفعصة ودككه الخشبية الملتفة فى أرض الشارع الذى لا تسير فيه الناقلات، يجلس فى هذه المقهى خلق كثيرون من باعة السمك السريحة وأنفار شغل الفاعل والشيالين والتباعين. لى فيها ولد صديق يمسح الأحذية فى الشوارع بصندوق صغير ويتخذ من هذه المقهى موطنا ليليا حيث يلعب القمار مع شلة من أصيع خلق الله. مثلى اسمه «حسن»، غير أن أهله يدلعونه فيطلقون عليه اسم

«ميمى». دلع الفقارة يقطع المرارة كما يقول المثل والاسم غير راكب عليه لكنه يركب عليه فقط فى قهوة «بحره» هذه وفى العشش التى يسكن مع أهله فى واحدة منها على بر الجيزة نحو جزيرة الذهب، حيث كل سكانها مغفرين صدئى الوجوه وبينهم «حسن» هذا أبيض الوجه على جبينه خصلة شعر كأولاد الذوات. له ثلاثة إخوة صغار يشتغلون مثله فى مسح الأحذية ولا يرجعون الدار إلا لماما. وإنى لأحب هذا الولد لأن فيه لطشة انجدعنة يفعل أشياء يعجز عن فعلها رجال بشوارب غليظة وحافظات نقود منتفخة، لا يهمه أى شىء. هو الآخر يحبنى لله فى لله وكان يتعارك من أجلى مثلما أتعارك من أجله إذا وجد أحدنا الآخر فى زنقة.

الولد نط من الفرح بمجرد أن رآنى والله يابوى وشالنى عن الأرض: «إزيك يا حسن أهلا وسهلا عاش من شافك». جاء الشاى مشروبا وحدنا على كوعة الرصيف المقابل وقام «ميمى» فاستلف علبة سجاير صغيرة وضعت بيننا. قال: «أنت قادم من البلد؟» قلت: «أنا قادم من السجن مباشرة إلى هنا!». نهض واقفا فى الحال يقول: «طب يلا بينا»، ثم سحبنى إلى كورنيش النيل بعد مبناء أثر النبى، فعبرنا النهر بالمعدية ومضينا على الشاطئ قليلا حتى وصلنا إلى عشة بين حوالى مائة عشة مبنية بالطين والبوص على مساحات عريضة بين عشب وأشجار كثيرة

الرابعة ـ عيان يضاجع ميتا

فى وسط دارهم البرحة حكيت له حكاية السحن من طقطق لسلامو عليكم. احتفت بى أمه العجوز لما علمت بالحكاية وذبحت لنا بطة كبيرة سلقتها فى الحال مع حلة أرز ومرق. أمه كانت طيبة وتشبه أمي لحد كبير ياسوى، قالت وهى تضع الأكل أمامنا بحب: «اقلع هدومك أغسلها لك وأزيل عنها رائحة الأيام المشئومة». خلعت ثيابى وخلع ابنها ثيابه، وبقينا فى السراويل فحسب متحررين من الخشية على الثياب فرلنا على الأكل حتتك بتتك، شفطنا من المرق ما كان يتصبب فى الحال عرقا لذيذا مصمصنا عظام البطة حتى لم تعد للقطط والكلاب بعدنا أى بركة تراجعها. وبعد الأكل شربنا الشاى دورين وأتينا على بقية علبة السجائر. تمطرقنا على الأرض نستشعر الرخاوة نستكمل بقايا الكلام حتى سطلنا الهواء الخريف فغطسنا فى نوم عميق، حتى الولية هى الأخرى.

لولا أن البول حصرنى فحلمت أننى أتبول ما كنت صحوت كانت الدنيا تبدو لى لحظتها وكأننا فى منتصف الليل، وأنوار

مصر تلعلط من كل ناحية فوقنا وتصب في حوش الدار شيئا قليلا من لألائها. لكزت «ميمي» فتقلب وفتح عينيه قائلا كأن الكلام لم يتوقف بيننا بعد: «هيه! ومعدين!». قلت: «اريد أفك حصري». أشار إلى تعريشة في ركن الحوش البعيد فعرفت أنها الكنيف فاتجهت اليها فقضيت حاجتي واسترحت وبحثت عن عقب سيجارة أشعله فوجدت «ميمي» يحتفظ بسيجارة قدمها لي مشتعلة فتربعت لبعض دقائق ومصمص أنفاس ثم طلبت ثيابي لألبسها فذهبت الولية لتأتي بها من على حبل الغسيل فلم تجدها، لم تجد لمحتويات الدار كلها أثرا، حتى الحلل والوابور والأكواب. صوتت الولية بكل عزمها، فأيقنت أنه النحس يابوي قد لحق بي في هذا المكان الهادئ. صرنا جميعا في ربع هدومنا بل في كامل عرينا، إذ ليس من خيط في إبرة يستر عورتنا إذا أردنا مغادرة عتبة الدار، وقلت لابد أن شيطانا يترصدني يابوي

شيء إلهي قال في نفسي: كفاك هذا يا حسن وتأدب وقم من هذا المكان. شعرت بالرعدة في قلبي والله ياحال، فطويت وجهي عن السماء وقفلت جسمي على نفسه كأن السجن قد تقاربت جدرانه على حتى التصقت بجسدي وتشكلت بعريه وقلت للولية في صوت يقطر البكاء منه: «والله ياولية أني لا أعرف ما أعمله الآن فدبريني». طوت الولية وجهها عني ومسحت دموعها الهاطلة وتمخطت ثم قالت: «تدبرها الطاهرة أم العواجز أم هاشم ابنة بنت

رسول الله». صحت جاعرا كأنني أشتم وأردح: «مدد ياست رئيسة وريني شطارتك! أكيد لك الدلال على ربنا!». فهضت الولية من كسير وصارت تروح وتجيء حائرة تشد في ذيل ثوبها وتسترسل اللعنات على من فعل هذه الفعلة الخسيسة فينا: «إلهي ما يرعى بيات! إلا هي يتقطع جسمه تحت عجلات قطار! إلهي يصرف أضعاف أضعاف ثمنها على الحكماء ومر الدواء وشر البلاء!».

استوقفتها قائلا كأنها المسئول الأكبر عن رفقتي هذه الشنيعة: «كل هذا لن ينفع ياحالة فدبريني!»، فأشاحت في أسف. وبعد صمت طويل كظيم نهض «ميمي» ومضى خارجا بطريقة فهمت منها أنه سيبحث عن اللص ويجيء به من تحت طقاطيق الأرض. لكنه غاب يابوي. وطال صبري وأنا أجلس تارة وأنهض تارة أخرى كالسبع الهائج أريد أن أفتك بالولية وأهدم هذه الدار على دموعها النحس، وهي في كل مرة تنجح في تهداتي بسياقها للنبي وللولي وآل البيت كلهم مما يعجزني عن التمادي في الهياج خشية الغلط فيهم هم الآخرين وهم شفعائي عنده سبحانه على ما صدر مني تجاهه من لحظة فائتة. لكنني ياحال كلما تذكرت أني خرجت اليوم من الحبس إلى حبس من صنف جديد تغلي الدماء في عروقي كيفما يغلي الماء في براص الشاي ويطفرتك من الغليان».

غابت الولية قليلا ثم عادت وفي يديها كوب شاي ثقيل رغم ضيقي الشديد بمنظره فإنني انشرحت قليلا لمرآه، الخاطر الذي جاءني لحظتها أن أطيح به وبيديها في الهواء فليحرقها الله. قالت الولية أن الجيران سمعوني وعرفوا كل شيء وحزنوا من أجلي وأن ابنها هناك يتبحث معهم فيمن يكون السارق الجبان، وامتنت ووضعت كوب الشاي بجواري منظرها صعب على يابوي مسكت وبعد وقت قصير وجدت يدي تمتد على كوبة الشاي فإذا للشاي طعم عبقري يابوي، سرى منه الخدر في أعصابي فشعرت أنني استرحت. بحثت بعيني عن الولية فلم أجدها. فقمت أتمشى من جديد ولكن في هدوء هذه المرة، أحاول الوصول إلى بر ولكن بدون فائدة يابوي، لا طريقة ولا حل والدنيا مثل خرم الإبرة وأنا الخيط يريد أن ينفد منه في حلكة الظلام. الدموع تهطل مدرارة على خدي وأنا أحس من لهيب غليانها أن الله غاضب على هذه الأيام وأنها أيام نحوس بالنسبة لي ولن يرضى عني سبحانه إلا بعد زوالها وهو وحده يعلم متى تزول لكن العشم في رحمته قريب. إذا بالولية داخلة تحمل بين يديها خرقة كالحة تقترب بها مني قائلة أن الجيران ناس على باب الله مثلنا وقد فتشوا عن ثوب قديم عندهم يمكن الاستغناء عنه فلم يجدوا لأن كل ثيابهم في الأصل قديمة ومعظمها خليع مما استغنى عنه آخرون لكن أمهم الطيبة دخلت القاعة فرأت عجينها مغطى بهذا الثوب فنظرت فيه فوجدته لا يزال صالحا لتغطية الجسد ففرطت الأم في عجينها

واستغنت - كثر خيرها - عن هذا الثوب فعساه ينفع أو يقضي مصلحة

عصبا عني تناولته يابوي، رحت أقلب فيه وأتحسر على حكم الزمن الجبان وفعل الأيام في، الثوب خشن يابوي، مليء بحبيبات قطع العجين الناشف ورائحة النخالة والتراب وخراء القمل والبراغيث والصراصير إلا أنه متماسك النسيج وليس به إلا رقعة واحدة من ناحية الكتف وبقعة عريضة جدا من زيت الطعام شربت من الوسخ والتراب ما شربت ولا يزال ملمسها طريا كجلد الأماعي لكنني لبسته يابوي، وضعته على كتفي وأدخلت أكمامي فيه وطرحته على بدني فاستقام كاسيا حتى ما فوق الركبتين بقليل قلت نحمد الله على ذلك. وقلت للولية سأرجع بعد قليل وقولي لابنك ينتظرني فسوف أبيت عندكم سواد الليل.

الخامسة ـ الله أكبر لكن الليل كافر!

أخذت الباب فى وجهى ومضيت

تملكت شاطئ النيل وبقيت ماشيا لا أعرف لى وجهة أخرى، حتى لاح لى من بعيد ضوء خافت محمر، كان يزداد احمرارا وتألقا كلما تراجعت بيوت المدينة وأحاط الظلام كل شىء. قد عرفته يانوى، تذكرت أنى أعرفه، أعرف أن هذا الضوء يقوم أمام خص على هذا الشاطئ يسكنه خفير وأولاده، إذ أن هناك من يملك هذه الأفدنة الكبيرة من طرح النهر قد زرعها أشجارا صغيرة لا أحد يدرى ما هى بالضبط حتى خفيرنا. وجاء لها بماكينة مياه وبهذا الخفير يحرسها، تذكرت أن اسمه «عم ذهب» وأنه يخفر هذه الأشجار وهذه الماكينة منذ سنوات، فى النهار تراه مترددا على أسواق السمك والفاكهة يداعب التجار ويتحدث معهم حديثا وديا طيبا، وهو مشهور بينهم. قلت: لا مفر ياعم ذهب! أنت الآن الذى أمامى وقد جاءت الطوبة فى المعطوبة هذه المرة ولكن ماذا أفعل! أنت على الأقل تستطيع التصرف أما أنا فلا أستطيع شيئا مطلقا! فدعنى أسرقك بالطيبة أو بالغصيبة بدلا من قتلك أو قتل روح أخرى!

أخذت أداري نفسي وأظهرها كلما اقتربت من خص الرجل. كان صوت أم كلثوم يصدح مغنيا هلت ليالي القمر - مع أن الظلام كان دامسا. فلما حاذيت الخص من جانبه الأيسر داريت جسدي في ضلعه ونظرت فإذا بالراديو ماركة صوت العرب معلق في مسمار في جدار الخص، وإذا بـ «نعم دهب» وزوجه وأولاده نائمون على الشاطئ أمام الخص كالسطيحة «هم يتبارون في الشخير كأنهم يهزءون بصوت أم كلثوم. همست قائلا «معلهش ياسيدة الغناء يآنسة فلسوف أثأر لك الآن، ومددت يدي فأغلقت الراديو، فساد سكون كبير سرعان ما احتلته أصوات الضفادع والصراصير وصوت الشخير. تحسبا للموقف صفقت بيدي تصفيقة واهنة قائلا بصوت أشد وهنا «ياجماعة ياللي هنا» فلم يجاوبني سوى الشخير، فتسللت على أطراف قدمي ودخلت الخص، لأرى ثياب الرجل وزوجه وأولاده معلقة على مسامير في الحائط فلممتها كلها ولففت فيها الراديو وكل شيء وجدته وتسللت خارجا أمشي على الشاطئ في هدوء وسرعة شديدين وأنا أقول «استر يارب» حتى وصلت إلى دار صاحبي «صيمي» والفجر يقول: الله أكبر

في دخلتي كان صاحبي يتعارك مع أمه يوبخها على نومها والولية لا تزال تستنزل غضب السموات كلها على الذين فعلوها وعيشوها هذه الليلة الكحلاء النحس التي دخل الحرامي في أعقابها ففششهم تفشيشا. طرقت الباب ففتحت لي وشهقت لما رأتني «ألقيت الحرامي؟». قلت: «نعم!»، فهب صاحبي وأقبل مهرولا «كيف؟». دفعتهما معا إلى صحن الدار مغلقا الباب خلفي بالترباس، وقلت للولية وأنا أفك الصرة الكبيرة «هذه حلل وأطباق ووابور بدلا من الذي ضاع منك ياحلوة! لعل النحس يزول عنك! وهذه ثياب لك أحسن مما سرق! أما أنت ياصاحبي فهذا ثوب لك أجدد من الذي سرق! وهاك فانلة صوفية بأكمام حمراء لك على كرمك معي! أما هذا الجلباب الصوفي المعتبر وهذا الثوب البوبلين الفخيم وهذا الصديري الشاهي - بكل ما في جيوبه - وهذه الفانلة القطنية وهذا السروال وهذا الحذاء وهذا الراديو فإنها جميعا لي ياخال! الله الله على الجد! والجد الله الله عليه!»

. قال الولد وأمه في نفس واحد «حلال عليك ياعم! والله إنك لتشكر!»، ونظر الولد في عيني قائلا بلهجة موزونة غير سالكة «عملت كيف يا أبو علي؟». حاذيت ظهر كفي بفمه وشطحت فيه «لا شأن لك! أشغل أم بحلقة!». إعتدل الولد قائلا «شمس طلعا شحل!»، ثم نهض من فوره فارتدى الفانلة والجلباب فظهر كأولاد الناس وإتفق في الحال على أن تقطعها أمه من الذيل والجنبين مقدار ثلاثة قراريط، ثم خلعه ورمى به لأمه، التي تلقفته وفي الحال راحت تبحث في عقدة منديل رأسها عن ابرة الخياطة، وعاد صاحبي يثقب الصديري بنظرات كالحة صايعة، خاصة بعد أن سويت الصديري على ضلوعي فكأنه على مقاسي بالضبط. ولقد راح قلبي يرقص تحت ثقل المحفظة الكبيرة التي كانت في جيبه يابوي، أشبه بمحفظة تجار الحبوب والأقطان يابوي، وكنت أؤجل فتحها لا أعرف لماذا ياخال. بسرعة سويت الجلباب البوبلين على

جسدي ومن فوقه الجلباب الصوف ثم الحذاء فبدوت كشهبندر التجار في زمانه. رحت أخطو وأعود مجربا المشي رافلا في ثمين الثياب فوجدته غاية المراد من رب العباد حقا يابوي، وعذرت الناس في تكالبهم على ذلك وتذكرت قول أحد الأئمة لعله «أبو حنيفة» إذ يقول على لسان عمي الفقيه الكبير «تقمشوا بثمين الثياب يحترمكم الناس!»، يومها قال أحد المعترضين الأذكياء على عمي الفقيه «دعك من هذا ياسيدنا فأبو حنيفة كان يروج للقماش باعتباره تاجر أقمشة بالوراثة!»، وشخط فيه عمي الفقيه وطرده من مجلسه. طب ما قولك الآن يابوي في أنني قد صرت متحيزا لأبي حنيفة في هذا القول؟ صحيح أن الإمام أبا حنيفة لم يحل لنا مشكلة الفلوس التي سنشتري بها هذا القماش الثمين ولكن الذي صار مؤكدا لي الآن هو أن لبس القماش الثمين هو رغل النعيم حقا، فاللهم أوعدنا به..

قطعت الحوش فدخلت التعريشة الكثيفة موهما أنني سأفعل مثلما يفعل الناس، وجلست، وجلست فعلا على الملاقي بعد أن حللت سروالي فإذا بي بالفعل كنت أريد ذلك فمضيت أفعل ثم انتهزت الفرصة وأخرجت المحفظة بقلب واجف ويد منتفضة كأنني أسرقها الآن فقط، فتحتها وانتهكت جيوبها بسرعة فإذا هي تحمل خمس ورقات بخمسين جنيها وسبع جنيهات فكة وخاتم فضي مكسور وبعض أوراق صغيرة مطوية. خرجت يدي بثلاث جنيهات مطوية ثم أطبقت المحفظة فطرقعت كبسولاتها بلذة

وأعدتها إلى جيب الصديري. لمحت ظل صاحبي يتلصص على من خلف باب التعريشة الصفيح، وبحثت عن ماء فلم أجد فمسحت مؤخرتي بطوبة ونهضت رابطا سروالي وخرجت إلى الحوش ملاحقا صاحبي الذي كان يسرع لينفي عن نفسه شبهة التجسس علي، قبضت على ذراعه وبالأخرى عرضت له الجنيهات قائلا «وجهك فقر! هذا كل ما وجدته! خذه»، ونزعت جنيها أخضر سمهري القوام عريض المنكبين يقف على صدره وجه أبو الهول فما رآه صاحبي حتى وقع مغشيا عليه من الفرح، فعصرت أدمعه ببوز الحذاء في جبينه وذقنه ليفيق وهو متمدمج في التمثيل يرمي جثته يمينا وشمالا ويشهق شهقة طلوع الروح كلما فتح عينيه ورأى ورقة الجنيه في يدي. دفعت بالجنيه في صدره ومضيت قائلا «دعني الآن أذهب إلى حال سبيلي قبل أن يطلع النهار متحدث في الأمور أمورا». فمضى معي نحو الباب بالفانلة والسروال وعانقني، فحضنته، ولحقت الولية في عند الباب فاحتضنتني وقبلتني في جبيني قائلة «مع السلامة يا ولدي! الله يسهل لك ويفتحها في وجهك ويبعد عنك أولاد الحرام»، فاستهدى قلبي خيرا بهذا الدعاء، وقلت والله إنها دعوة تساوي عندي أضعاف ما أعطيته لها.

وخرجت، فمضيت أخرم في طرقات متوغلة في بر الجيزة أمشي بخطوات ثابتة واثقة وإن كان قلبي في صدري كبندول ساعة المسجد ياحاج.

السادسة ـ الهروب من قرص الشمس!

أدركتني الشمس واقفا على محطة الحيرة في انتظار قطار الصعيد. صقيت نافرا من قرص الشمس مزورا عنه أحاول أن أتلاشى رؤيته لوجهي حتى جاء القطار فركبته فظل القرص يطاردني من شباك القطار يترصدني من سمائه ويسرع فيسبق القطار باميال، وينتظره ليشده، فكأنه يبحث بين عموم هؤلاء الركاب عني وحدي، يشدد لهيبه، يظهر أنه سيستبد معي ويشي بي للركاب. يفضحني الفضائح السبع كلما أمحمته بإغلاق هذا الشباك يابوي هب هتف من الجالسين أمامي وطلب رؤية المزارع والحلاء والضوء الصباحي الدافيء الحلو، يعطيني الهلف دروساً ومواعظ فأفتح الشباك رغما عني وشيء إلهي في نفسي يقول ياولد إقصر الشر ولا تتشابك في خناقات على الصباح فأخذ الشيطان وأوصل إلى أهلك على خير. أغمضت عيني في وجه الشمس وتذكرت الراديو ففتحته فانطلق صوته برقصة ساحرة كان الكون بجميع أركانه يرقص ويمزك مع شادية وهي تغني «يانور عنيه وأكثر وأكثر شويه يا أغلى عندي م الدنيا ديه» فتطلع وراءها الموسيقى هائفة مشحلة ودماغي سابح في بحر

داك وأمى تحضننى معنية نفس الكلام على نفس الموسيقى، ثم تمنيت لو أن البنت «حنة» بنت أبى سكين هى التى تغنى لى هده الغنوة وصوت الكمسارى يدخل فى هده المريكة صائحا فى غلظة «أنت ياخويه ياللى هيمان فى الخيال تبتسم؟ النبى تبسم! لكن فين التذكرة؟»، فصحوت مبتسما ووضعت يدى فى جيب الصديرى الصغير المعد للساعة فأخرجت التذكرة جديدة خضراء سميكة فأخذها الكمسارى وقرضها بالكماشة وأعادها إلى قاعدتها إلى نفس الجيب وقد داخلتنى نشوة إذ أدركت حلاوة أن يكون للمرء صديرى كهذا لأشياء كهذه فيا للأبهة يا ولد يا ولد أبى ضب والله صرت الآن رجلا محترما ولو على قفا الآخرين يهز لك الكمسارى رأسه بالتحية ثم أن الكمسارى دخل مع الهلف الجالس قبالتى فى كلام وحديث فهمت منه أن هذا الهلف لم يقطع تذكرة ويريد قطعها الآن ويناكف الكمسارى ويساومه والكمسارى يقول له يا نحم تكيفت يابوى من حلاوة أن يكون مع المرء نقود يهينها بدلا من أن تهان نفسه عندئذ يا بوى سخرت من قرص الشمس واقتنعت أن له مهمات أخرى كثيرة وأننى لست فى حسبانه فاصطجعت ممددا منصتا إلى صوت الراديو وكان فى جيب الصديرى علبة سجائرها مفعصة هى بقايا سجائر «عم دهب»، وكانت بعض سجائرها مقلوبة على وجهها فرجحت أنه يميزها عن غيرها إذ هى محشوة بالحشيش لابد، غير أننى لم أتذكر ذلك ولم أنتبه إليه إلا بعد أن دخنت آخر سيجارة من المقلوبة، سرح

نماعى مع الراديو، شىء مليح والله يابوى، مليح قوى قوى، هذا الشىء المسمى بالراديو، يصدح بالغناء والكلام والموسيقى والقرآن والتشخيص والمسخة وكل شىء، قال الرسول عليه الصلاة وأتم السلام من علامات الساعة أن ينطق الحديد وها هو ذا الحديد قد نطق وملأ الدنيا زيطة وزمبليطة ولم تقم الساعة بعد فمتى تقوم القيامة؟ وما المقصود بهذه الساعة يابوى؟ إنها ساعة القيامة بالطبع ياخال. وما القيامة ياخال؟ ما القيامة التى ينتظر أن تحدث ويكون نطق الحديد علامة من علاماتها؟ عقلى يحدثنى يابوى أنها قيمة الخلق! يقومون ليفعلوا شيئا كبيرا ياخال! يقلبون الدنيا مثلا فيجعلون أعاليها أسافلها لتتنفس خنق طال انكتام أنفاسهم وليجرب آخرون انكتام الأنفس!؟ وإن من يكتم أنفاس الخلق يقوم الخلق عليه ذات يوم فيفكوا قيود السجن عن الهواء الذى استلبه فيمرح الهواء فى فراغاته الحميمة يعانق الخلق ينبت الزرع ترقص فروع الشجر تتحرر الأنفاس تنزل غيثا يهمى على الخلق بالحياة!! فى ظنى يابوى أن الرسول عليه السلام قد صدق وأن القيامة سوف تقوم حتما قسما عظما لكن حين يؤذن الأوان لينطق الحديد ـ هذا الحديد الناطق ـ بكلمة السر الحقيقية! التى لست أعرفها بالضبط يابوى!.

شيئا فشيئا راح صوت الراديو يشحب ويتداخ ويهتز، فتذكرت أنه يعمل بالحجارة البطارية مما يباع لدى البياعين فى سوق العتبة وسوق عرة والدكاكين البندرية اغتممت لما تذكرت أن

حجارة البطارية هذه ستكلفنا كل يوم والثانى، وازددت غيظا لما تذكرت أننى لا أعرف كيف تنزع البطارية القديمة وتركب الجديدة. خفت أن تنفد البطارية قبل وصولى إلى العيال فيصير الراديو مجرد صندوق غير ذى قيمة. أغلقته وركنته فى حجرى محلقا عليه بيدى واستسلمت للأفكار: ماذا ستفعل يا ولد؟ غدا أو بعد أن تنفد وتبقى أنت على الحديدة وتعود ريمة لعادتها القديمة. شىء إلهى قال لى: يا ولد سلمها لله فليس من المعقول أن يعمل هو عقله بعقلك الصغير ويمسك لك على الواحدة، إنه الأب الحنون ولابد أن يرضى عنك فى يوم من الأيام ولكن بشرط أن تقدم أنت فروض الطاعة والولاء يا حسن كما يقول عمى الفقيه الكبير، وعموما فانه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وإن شاء أن يعزك فسوف يفعل أو يذلك فالأمر بيده، ولكن، معلهش يارب.. معلهش يعنى بس فى ذى الكلمة التى أوجهها اليك الآن بقلب صاف ونية خالصة: كيف أتوب يا بوى والفقر والعوز يلاحقانى أينما سرت؟! مر الفقر والعوز أن يحلا عنى ويرحلا من تحت أقدامى! أو فمر أمى واخواتى أن يقفلوا بطونهم ويدفنون عريهم تحت التراب الوجيع! أصدر أمرك إلى كل ثقب إبرة فى جسدى أن يتنازل عن كل مطلوب وكل مرغوب! حينئذ ـ يارب ـ يصبح فى مقدورى أن أقول لك أن توبتى نصوحا ونهائية عن كل فعل يغضبك أو يؤذى عبادك الصالحين! أننى واثق يارب أنك سبحانك قادر على كل شىء وما أظن أن هدايتى أمر يصعب على قدرتك لكنه مفتقر إلى مشيئتك..

الدموع صارت تنهمر من عينى يا خال، انهمرت كما المطر حتى ارتجفت من شعور بالبرد القارص رغم اشتداد صهد القيظ الماشى لصق شباك القطار. كلما جففت الدمع يزداد انهمارا كأنه البئر الزلال كلما أخذت منه يفيض ويمتلىء. شىء إلهى فى نفسى يقول: ابك ياولد مشتهاك ولا تترك فى مخازن الدموع قطرة واحدة دع كل المواجع التى ادخرتها فى الحبس أمام الرجال وفى التلطيم فى سود الليالى تنز وتعصر كل قيحها فلربما يسكن الوجع إلى حين أو إلى الأبد..

وهكذا ياخال بدأ غسيل عينى يجف شيئا فشيئا وبدت الدنيا أمامى*زاهية مخضوضرة عليها يلمع الندى.. فشعرت أن أرض الحبايب قد هلت منذ بضع محطات سابقات فصرت أستنشق ريح محطة «صدفة» التى تحمل فى ثناياها ريح دارنا وأمى وأخوتى. قمت فسويت طوقى وأصلحت قفاى ونفضت حذائى وسحبت من الرف جعبة ورق مطوية على خمسة كيلو من فاكهة مصر الطيبة اشتريتها من فاكهى فى قفا المحطة فملأت الجعبة بعنب ورمان وخوخ وتفاح مما يشتهى العيال ويسمعون. تأبطت الجعبة برفق ياخال، تماسكت فى عامود الباب أترقب رصيف محطة «صدفة» وهو يزحف داخلا تحت سلم الباب كأن الرصيف هو الذى يجرى، لم أكن لاطيق صبرا حتى يقف القطار نهائيا، فما صدقت أن هذا لهاث الرصيف وتثاقل زحفه حتى رميت بنفسى مقلدا أولاد البندر، حين يفعلون ذلك يجعلون وجوههم فى اتجاه سير القطار

حتى يمكنهم التماسك فى الارض، لكننى لحظتها كنت معلقا على سلم الباب ملقيا ببصرى فى الاتجاه المعاكس الذى يخلفه القطار وراءه إذ أن عينى كانت ترقب الطريق الزراعى الذى سارجع كل هذه المسافة لاسلكه إلى بلدتى «كوم سعيد». فلما القيت بنفسى على الرصيف دفعنى الهواء المواجه بشدة وعنف فالقى بى فى الهواء بعيدا، لافاجأ بنفسى منطرحا على ظهرى على مبعدة من سور الرصيف رافعا ساقى فى الهواء ممددا ذراعى والالم فى رأسى وظهرى لا يطاق ياخال. صرخت من عزم ما بى وقلت آه ياعمرى. لكنى لا أدرى كيف نهضت مسرعا كلمح بالبصر، لأرى الأرض مبذورة عنبا ورمانا وخوخا وتفاحا، وليس ثمة من راديو..

أخذت الطم وجهى وأشد فى طوقى وأولول وأهلوس أصرخ لله ما يغيثنى. جاء نفر من الركاب يهرولون نحوى بكل لهفة وبقايا صراخ وصياح، فلما رأونى واقفا على حيلى ظهر الاطمئنان عليهم وصاروا يجمعون ما يمكن جمعه من فاكهتى وقد صارت كالكنافة يابوى، كنافة معجونة بعيد عنك. حاولنا وضعها فى الجعبة لكن الجعبة كانت تفتقت وتهرأت. بحثوا عن جرنان مع أحد فلم يجدوا فكوموها أمامى على الارض وانصرفوا، ووقعت عينى فجأة على الراديو عند آخر الرصيف وقد صار إلى ثلاث قطع منفصلة وإن اشتبكت فى بعضها البعض باسلاك وبدت السماعة كقبضة العجين سوداء مخرمة مليئة بالغموض واللمعان

كوجه النحوس التى تتصدى لى هذه الأيام ظلما وعدوانا والله يابوى. وليت نحو حطام الراديو فرأيت جوارها خرقة بالية كالحة سرعان ماتعرفت عليها فاذا هى الثوب الخلق الذى سبق أن جاءتنى به الولية أم صاحبى «ميمى» من جارتها وكان غطاء للعجين، اذ أننى حين خلعته فى دار صاحبى احتفظت به بغرض الانتفاع به فى لف شىء. قلت: ياما أنت كريم يارب، وانحنيت فجمعت اشلاء الراديو ووضعتها فى الخرقة وقد داخلنى شعور بأن أعرض أمره على سمكرى البلدة عله يتمكن من إعادة لحمه وتشغيله وعدوت على بقايا الفاكهة فجمعتها لففتها مع اشلاء الراديو فى الخرقة التى كان مقدرا لها أن تلف جسدى نفسه فى زنقتى ولكن ما هى ذى تلف أشلاء ذنبى تزفنى إلى الأهل خائبا أقول ياسايل الستر كفانى ما لحق بى من الكسفة والمذلة وأشملنى برحمانيتك الواسعة.

من حسن الحظ يا خال أن أحدا لم يتعرف على فى الطريق والكل يرد على سلامى كالماكينة: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته اتفضل يا أبو العم. الوحيد الذى تعرف على حقا هو أمى يا بوى. فتحت لى الباب فشهقت فدبت صدرها بالحيل صائحة بأشد عزم فى قلبها ولدى. فرميت بنفسى فى صدرها عابس الوجه كظيما. فما أن ردت وراءنا الباب حتى تفجرت باكيا، كأن كل بكائى داخل القطار كان الزلازل تسبق انفجار البركان الذى يتعطف على الأرض الملائمة. لم أكن أدرى أبكائى هذا أم بكاء

أمي.. لكنني كنت أوقن يا بوى أن صخور الحياة وكلاكيع المر المتكورة بأحشائي وفوق صدري قد انصهرت وذابت من لحظة ما لامس خدى صدر أمي. بكيت نيابة عن كل الحواديت المرعبة التى وددت لو أحكيها لها ياخال، وعن كل الأخبار المؤلمة التى طالما استشعرت لذة حين أرى حالها إذ تعرفها. كان كل ما أريد أن أحكيه لها كثيرا يا بوى، معقد ومؤلم، فاكتفيت بالبكاء كلما تصيدت أمي مناسبة تجرني فيها للحديث عن مصابي وغيابي كل هذه الشهور بدون حس ولا خبر. كنت في بعض اللحظات أشرع في أن أحكي لها يابوى، لكن عبرة البكاء تكتفني عن الكلام فلا أكمل ولا أتكلم من الأساس..

إلى أن جاء يوم تأكدت فيه أن أمي قد تمكنت من ترجمة كل دمعة دمعتها ياخال، وباتت تعرف عني كل شيء دون أن أحكيه لها بالكلام، ولما تأكدت هي أن مخزون الدمع في عيني قد نضب، بدأ دورها هي في البكاء وما أفظع بكاء الأم عندنا ياخال، أمي أنا بنوع خاص ينبوع بكاء، لم أر لبكائها ضريبا في البر كله، تبكي الشهور وسنين خلت كان حالي فيها ـ وحالهم ـ يستحق البكاء الأليم. تحلف اليمين ياخال أنها لم يشغلها عن الاستمرار في البكاء سوى نجاح السمكري العفريت في لحم صندوق الراديو وتجميع عدته والعكرشة في أسلاكه حتى وش ونطق وصار عال العال ولكن بشرط أن نضع حجارة البطارية من الخارج في

صندوق صغير خاص بها وموصول بالعدة بسلك ومربوط في صندوق الراديو بحزام من الأستك. بات فرجة حقيقية نفخر بها على أهل الشارع كله ونلقى من أصواته العجائب والدهشات، حتى أن سحنة وجه أمي قد تغيرت والله ياخال وانشدت بعد تهدل وكرمشة امتلأت بدم الحياة من أنفاسي في الدار بعد جفاف وتحرق. صارت كل يوم تتنازل عن شيء من همومها وتخشبها حتى جاءت لحظة صارت تتمايل فيها مع موسيقات الراديو الراقصة، ولولا الحياة لهزت جزعها، لكن الحياء والحق يقال يا خال لم يكن يمنعها من أن تغني أحيانا مع المغني. تحلف اليمين ياخال أنني احترق قلبي حزنا عليها وعلى نفسي من أجلها. أيقنت أن الولية ـ أمي ـ في نفسها الفرح على أشده، وأخوتي البنات يعرفن ذلك ويحببنه حتى شوشة الدماغ.. فمن تراه يكون ذلك الشيطان الرجيم الذي يحكم علينا جميعا بأن نتوق للفرح ونشتهيه حتى الحزن الأليم حتى صار الحزن طبعنا وغيرنا في ملذات النعيم غارق يلهو. قلت في نفسي: والله لأفرحنك يا أم ويا أخوتي مهما كان الثمن باهظ التكاليف، سوف أفرحكن أشد الفرح ولو على جثتي وجثة الشيطان نفسه..

سلسلة أعمال خيرى شلبى

الكتاب الثانى

(الكومى)

وثانينا الكومى